INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

جـــورج مارسيه

GEORGES MARÇAIS

محمد لطفي الزليطني

100 كتاب وكتاب
24

جورج مارسیه

الكتاب : جورج مارسيه
المؤلفة : **محمد لطفي الزليطني**
الطبعة : الأولى 2021
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2021MO0008
الترقيم الدولي : 978-9920-627-82-5

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

جورج مارسيه

محمد لطفي الزليطني

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبة..... 7

توطئة..... 9

جورج ألفريد مارسيه (1876-1962)..... 15

لمحة عامة عن أعماله العلمية..... 31

قراءة في بعض كتبه وأعماله مع مقتطفات منها..... 39

مختارات مما قال عنه بعض الباحثين..... 105

بيان ببعض مؤلفات جورج مارسيه..... 115

- من مؤلفاته المترجمة إلى اللغة العربية..... 115

- من مؤلفاته بالفرنسية..... 116

- من أعماله المشتركة..... 121

المصادر والمراجع..... 123

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة

ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تماماً أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشيناً لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

توطئة

قد يتساءل البعض إن كان المستشرقون، وخصوصاً منهم الفرنسيون من أمثال جورج مارسيه، يستحقون كتاباً عربياً يقدّمهم ويستعرض إسهاماتهم ويدرس أعمالهم وكتاباتهم. ذلك أن عمل كثير من المستشرقين الفرنسيين - وغيرهم في الواقع - قد اقترن، إلى حد كبير، بمشاريع دول الاستعمار، واندرجت كتبهم ودراساتهم ضمن خطة واسعة امتدت عقوداً من الزمن تهدف إلى ترسيخ الهيمنة السياسية وطمس الصورة الأصيلة للشعوب المستعمَرة، فكيف يُعقل أن نكتب عنهم اليوم دون أن نثير شبهة الشك بأن عملاً كهذا قد يسهم في تلميع صورتهم وتبرئة ساحتهم؟

لا يملك المراقب المتجرد إلا أن يقرّ بأن مشروع الهيمنة الاستعمارية كان حقيقة، وأن الاستشراق نشأ في حضن بلاد غربية كانت تحركها، على مدى قرون من الزمن، مطامع الهيمنة. ولا يملك المراقب المتجرد كذلك أن ينكر أن بعض المستشرقين - بحكم كونهم أبناء بيئتهم وعصرهم، وسواء كانوا أساتذة، أو لغويين، أو مترجمين، أو سفراء، أو فنانين، أو علماء - كانوا الأداة الفكرية لمشروع الهيمنة السياسية الذي كانت تنفّذه بلادهم. ولا

يمكن، بالتالي، إلا أن نقرّ بتلازم المدّ الاستعماري وازدهار حركة الاستشراق، وما كان بينهما من تعاضد.

لقد بلغ نظام الإدارة الاستعمارية في فرنسا قمة ازدهاره في مطلع القرن العشرين. واتجه العمل يومها إلى استثمار المعارف وتوظيف العلوم الاجتماعية من أجل فهم أفضل للواقع المعاصر، واعتمدت فرنسا سياسة استعمارية خاصة للتعامل مع البلاد الإسلامية، أساسها توظيف خبراء الاستشراق لإدارة المستعمرات ووضع سياسات خاصة بالبلاد الإسلامية المستقلة. واكتسبت حركة الاستعمار، بذلك، نوعاً من العمق التاريخي منحها قدراً من المهابة العلمية.

لقد سخّر المستشرقون جهودهم لخدمة بلادهم، وأصبح العديد منهم مستشارين لدى الساسة، وأُنشئت مراكز بحثية ومعاهد لتوفير المشورة اللازمة لاتخاذ القرارات الإدارية ومنحها، في الوقت نفسه، شيئاً من المصداقية. وتَحقق بذلك اندماج شبه كامل بين العلماء ومراكز السلطة. وتَجنّد الجامعيون لمواكبة العمل السياسي ومعالجة قضية العلاقة مع شعوب المستعمرات إمّا لاستيعابها أو لتحقيق الشراكة معها[1].

(1) لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن، انظر:
Laurens, Henry, L'orientalisme français: un parcours historique, in: **Courbage,** Youssef et **Kropp,** Manfred: PENSER L'ORIENT, Publications de l'Institut français du Proche-Orient, Presses de l'Ifpo, 2004, pp.103-128.

ورغم ذلك، فإن المراقب الموضوعي لا يملك إلا أن يقر بأن تقاليد البحث العلمي التي أسسها الاستشراق عموماً، والفرنسي خاصة، قد أنتجت كمّاً هائلاً من المعارف التي تستحق من الدارس وقفة تأمُّل وتمحيص، ليس من باب المنافحة والتبرير، ولكن من منطلق الدارس المتجرد الساعي إلى تقويم المعارف التي أنتجها هؤلاء المستشرقون ومختلف أشكال التفاعل التي أفرزتها أعمالهم.

في هذا السياق، ينتمي جورج مارسيه (1876-1962)، وأخوه الأكبر وليام (1872-1956)، الذي كان له تأثير بالغ في توجيه حياته العلمية والفكرية الوجهةَ التي اختارها، إلى جيل من أبرز أعلام الاستشراق الفرنسي في بلاد المغرب العربي، الذين سخّروا جهودهم وعلمهم لدراسة هذه المنطقة أساساً. وقد ظهرت أعمالهما الأولى منذ مطلع القرن العشرين، في فترة اقتنعت فيها النخب العلمية في فرنسا بضرورة بلورة سياسة استعمارية فرنسية خاصة في شمال أفريقيا، واصطبغت أعمالهما بهذه الرؤية عموماً، وأُعيدت قراءتها من هذه الزاوية بعد الاستعمار، فتعرضت للنقد اللاذع. لكنها ظلت مع ذلك تُنشر ويُعاد نشرها، حتى في الجزائر[1].

(1) انظر في هذا الشأن:

Messaoudi, Alain: DEUX SAVANTS ORIENTALISTES DANS L'ALGÉRIE COLONIALE: WILLIAM ET GEORGES MARÇAIS, =

وإليهما وإلى زملاء لهما، مثل روبير برونشفيغ Robert Brunschvig (1901- 1990)، وروجيه لو تورنو Roger Le Tourneau (1907- 1971)، وإلى جيل جديد كامل يُعدّ امتداداً لهم ويضمّ مستعربين فرنسيين وباحثين مغاربة من ذوي الثقافة الفرنسية، يعود الفضل في إنجاز دراسات غطّت العصر الإسلامي العربي البربري من تاريخ إفريقية[1] تغطية كاملة[2].

ولعلّ القارئ الكريم، وهو يطالع هذا الكتاب ويتابع معنا سيرة جورج مارسيه وأفكاره وما سنورده من مقتطفات من أعماله،

= *in*: Abderrahmane Bouchène *et al.*: *Histoire de l'Algérie à la période coloniale*, *1830-1962*. La Découverte, 2014, pp. 282-286. ISBN 9782707178374,
https://www.cairn.info/histoire-de-l-algerie-a-la-periode-coloniale-

(1) إفريقية، أو المغرب الأدنى، هو الاسم الذي أطلقه العرب على منطقة تضمّ تونس الحالية، وشمال شرق الجزائر (قسنطينة)، وشمال غرب ليبيا (طرابلس)، وشكلت ولاية تابعة للدولة الإسلامية إبان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وهي نفسها، إلى حد ما، المناطق التي كانت تتبع مقاطعة إفريقية الرومانية (أو Africa Proconsularis)، والتي أطلق عليها بعض المؤرخين المعاصرين اسم "بلاد البربر الشرقية".

(2) انظر في هذا الشأن:
Djait, H. (1973). L'Afrique arabe au VIIIe siècle (86-184 H/705-800). *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, 28 (3), pp. 601-621. Doi: 10.3406/ ahess. 1973.293371.
Published online by Cambridge University Press: 25/5/2018.
https://doi.org/10.3406/ahess.1973.293371

سيلاحظ كيف أن هذا المستشرق جمع في حياته وأعماله الكثيرة بين شخصية المؤرخ المنسجم تمام الانسجام مع السياسة التي اعتمدتها فرنسا الاحتلال في شمال أفريقيا؛ وشخصية الفنان القدير صاحب الحس المرهف والفكر العميق في تناوله أسرارَ العمارة والفن الإسلامي في بلاد المغرب.

جورج ألفريد مارسيه
(1876 ـ 1962)

هو المستشرق والرسام والمؤرخ الفرنسي جورج ألفريد مارسيه، سليل أسرة من الطبقة البورجوازية ضمت ثلة من الفنانين والأدباء. ولد في مدينة رين، من مقاطعة بريطانيا، شمال غربي فرنسا، يوم 11 مارس 1876، والتحق بمدرستها للفنون الجميلة قبل أن ينضم إلى أكاديمية جوليان l'Académie Julian بباريس لدراسة الرسم والنحت.

بدأ جورج مارسيه حياته رسّاماً ثم تَخصص في التاريخ والآثار. يقول متحدثاً عن نفسه في حوار أجراه عام 1952 مع الصحفية الفرنسية الجزائرية ألبيرت سادوييه Alberte Sadouillet: "فيما أذكر عن تلك الأيام التي تبدو الآن بعيدة،كنت تلميذاً في مدينة رين، مسقط رأسي، ثم في معهد الفنون الجميلة بباريس، أدرس الفن على يد أساتذة، مثل بنجامين كونستان[1] الذي

(1) **بنجامين كونستان** Benjamin Constant (1845-1902) رسام فرنسي وأستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة بباريس، من فناني الحركة الرومنسية، اشتهر بلوحاته التي تمثل موضوعات وشخصيات مشرقية. للمزيد في شأنه، انظر:
https://en.wikipedia.org/wiki/Jean-Joseph_Benjamin-Constant

علّمنا، حسب تقاليد تلك الأيام، أن نعرف أوّلاً كيف نرسم قبل أن نرغب في الرسم... وفي معمل جان بول لوران[1]، ذلك الرسام... المعروف بلوحاته الطبيعية ذات المشاهد الريفية..."[2].

في تلك الحقبة الأولى من حياته، بدأ جورج مارسيه يشعر بتأثير الألوان التي كانت تزخر بها لوحات المشاهد الطبيعية الكلاسيكية، وكذلك الآثار المهيبة الرائعة التي تقوم شاهداً على إنجازات الماضي القديم. كان لديه استعداد أوّلَ حياته للانخراط في مجال الفن والرسم، لكن زيارته لمدينة تلمسان عام 1901، حيث التحق بأخيه الأكبر وليام مدير مدرستها العريقة آنذاك[3]،

---

(1) **جان بول لوران** Jean-Paul Laurens (1838-1921) رسام ونحات فرنسي. عمل أستاذا للرسم في أكاديمية جوليان بباريس وفي المعهد العالي للفنون الجميلة بباريس. ومزج في أعماله بين أسلوب المدرسة الرومنسية والكلاسيكية الجديدة. اشتهر بلوحاته ذات المشاهد التاريخية والدينية. للمزيد في شأنه، انظر:

https://en.wikipedia.org/wiki/Jean-Paul_Laurens

(2) من حوار لجورج مارسيه أجرته الصحفية الفرنسية الجزائرية ألبيرت سادوييه، ونشر في مجلة "الجزائر" الناطقة بالفرنسية *Revue Algeria* في فبراير 1952. انظر الحوار الكامل على الرابط:

http://www.editions-du-tell.com/fr/fichiers/popmarcais.htm

(3) نظام **المدارس Médersa** التي أسستها السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب نظام يقوم على مؤسسات تعليمية حكومية موزعة في الأقاليم، تشرف على تخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الفرنسية للإشراف على الشؤون الدينية (كالمفتين والأئمة) والعمل في الإدارات=

غيّرت مسار حياته. فقد اكتشف فيها لأوّل مرة معالم الفن المعماري الإسلامي فشُغف بها، وفتنته المدينة بجمال طبيعتها؛ يقول في ذلك: "إن الماء الغزير الصافي يغذّي الحياة في ريف تلمسان منذ حوالي ألفيْ سنة. وإلى هذا الماء، هذه الهِبة من الله، وإلى البساتين التي يمنحها الحياة، تدين تلمسان باسمها الروماني القديم (بوماريا) وما يحمله من معاني العُصارة الغنية المنعشة التي تجدها في الثمرة الشهية"[1].

كانت تلمسان في الماضي عاصمة لدولة بني عبد الواد التي حكمت المنطقة خلال القرن الثاني عشر، وكانت قبل ذلك مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، قبل أن يدخلها العرب المسلمون وتتوالى على حكمها أسر وسلالات عديدة من الإمارات المحلّية الإسلامية. وقد ترك ذلك في المدينة آثاراً ونماذج معمارية فريدة تميزت بغناها الفني النفيس.

واكتشف مارسيه في المدينة كذلك واحداً من أبرز مراكز الاستشراق الفرنسي يضمّ نخبة لامعة من الباحثين في العلوم

= القضائية (كتّاب السجلات القضائية والمدنية) والمترجمين ومعلمي اللغة العربية، وذلك وفق سياسة ممنهجة تراعي ظروف شمال أفريقيا وتسعى - ضمانا للنظام - إلى التوفيق بين التقاليد المحلية ومقتضيات التقدم الغربي. وكان يشرف على هذه المدارس ذات الطابع الفرنسي مستعربون فرنسيون، وكانت تنهض بدور الوساطة بين السكان والإدارة الاستعمارية.

(1) نقلت عنه ذلك الصحفية ألبيرت سادوييه، المرجع السابق نفسه.

الاجتماعية والإنسانية، وقد أصبحت المدينة بفضلهم جسراً ثقافياً يربط بين تيارات فكرية وأيديولوجية متعددة. واجتمعت في المدينة ثلة من المستشرقين شكلوا نواة لما سمّاه المؤرخ الأمريكي جورج ترامبل George Trumbull (مدرسة تلمسان)، وكان من بينهم المستعرب موريس غودفروا ديمومبين Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957) المتخصص في تاريخ الأديان وتاريـــخ الحج، والمؤرخ أوغوست كور Auguste Cour (1866-1945) الذي وضع فهرسا للمخطوطات العربية المحفوظة في جامع تلمسان؛ وعالم الإثنوغرافيا إدمون دوتيه Edmond Doutté (1867-1926)، والمتخصص في اللغات البربرية إدمون ديستان Edmond Destaing (1872-1940) الذي ألّف أول قاموس مرجعي للفرنسية والبربرية؛ وكذلك عالم الإثنوغرافيا والمؤرخ المتخصص في تاريخ الإسلام ألفريد بيل Alfred Bel (1873-1945) الذي تولّى إدارة المدرسة وظلّ يعيش في مدينة تلمسان حتى آخر حياته؛ إضافة إلى وليام مارسيه كبير المتخصصين في اللهجات العربية والأستاذ لاحقاً بالكوليج دي فرانس.

ويعود الفضل في ازدهار مدرسة تلمسان، مطلع القرن العشرين، إلى موقعها الجغرافي بوصفها البوابة الشرقية للمغرب الأقصى، إذ كانت أساليب البحث الاجتماعي اللساني والإثنوغرافي

التي اعتمدها روّادها سبيلاً لتوفير رصيد من المعلومات العملية التي أفادت منها الإدارة الفرنسية في توسيع نفوذها في المنطقة. فكانت البحوث اللغوية الميدانية والعرقية التي أجراها هؤلاء المستعربون أداة لتعزيز السيطرة على البلاد. وكانت دروس العربية المغاربية التي كان يلقيها اللغويون من بينهم على موظفي الإدارة الفرنسية أداة فاعلة في تكوين الموظفين القائمين على الترجمة القانونية في الإدارة المدنية للسلطات الحاكمة[1].

كانت تلك الزيارة إذن حدثاً جعل جورج مارسيه يكتشف في نفسه شغفاً عميقاً بالدراسات الأثرية ذات الصلة بالحضارات، وانبثقت لديه الرغبة في دراسة الفن الإسلامي الذي لا يمكن فهمه، كما يقول هو نفسه، إلا بالعودة به إلى أصوله. وأدرك الرجل أن ذلك لن يتحقق له من دون قاعدة متينة من المعارف التاريخية، فاتجه، بناء على نصيحة من أخيه وليام، إلى إعداد إجازة في التاريخ، وأقبل على تعلُّم اللغة العربية ليتمكن من

(1) لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن، انظر الرابط التالي:
https://www.wikiwand.com/fr/M%C3%A9dersa_de_Tlemcen
وانظر كذلك: **هلايلي**، محمد حنيفي: المستعربون الفرنسيون في مدرسة تلمسان الرسمية ما بين 1850-1962: دراسة في المسارات والتوجهات الاستعمارية والاستشراقية؛ مجلة *الحوار المتوسطي*، مج. 12 (13)، ديسمبر 2017، ص. 41-64.

دراسة النصوص المتاحة عن التطورات التاريخية التي مرت بها المنطقة. فالتحق عام 1902 بكلية الآداب بجامعة رين الأولى ليدرس التاريخ والجغرافيا. ثم بمعهد الفنون الجميلة في المدينة نفسها، وبعد ذلك بمعهد الفنون الجميلة وأكاديمية جوليان للفنون بباريس. وحصل على الليسانس في التاريخ والجغرافيا، من كلية الآداب بمدينة رين عام 1904، ثم على شهادة اللغة العربية من جامعة الجزائر عام 1906. وعيّن بعدها أستاذاً للأدب في مدرسة قسنطينة عام 1907.

وفي عام 1913، حصل على الدكتوراه في الآثار الإسلامية من جامعة السوربون برسالة حول (تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر)، وكان أول فرنسي يحمل الدكتوراه في هذا التخصص؛ وأتبعها بكتاب حول الفن الإسلامي أسهم به في دراسة فن الخزف عند المسلمين، وكان ذلك بداية لتوجُّه جعل منه تخصصاً ظل شغله الشاغل في دراساته اللاحقة.

تولّى جورج مارسيه إدارة مدرسة تلمسان بالنيابة، خلفاً لألفريد بيل Alfred Bel، وذلك لفترة وجيزة من مارس 1914 وحتى سبتمبر 1916، حين عيّن أستاذاً للآثار الإسلامية بكلية الآداب في الجزائر العاصمة، ثم أستاذاً لكرسي الآثار الإسلامية

الذي أنشئ من أجله في الكلية نفسها عام 1919.

وفي عام 1920، أصبح مارسيه مديراً لمتحف الآثار والفنون الإسلامية في الجزائر (Musée National des Antiquités et des Arts Islamiques)، حيث "واصل تطوير تراث وتقاليد أضرّت بها حركة التحديث، وشجع الجزائري محمد راسم (1896-1975)... على البروز أستاذاً رائداً لفن المنمنمات في الجزائر"[1]. وظل على رأس هذا المتحف حتى تقاعده عام 1961، ونجح طوال إدارته للمتحف في تمثيل الحضارة التي سخّر لدراستها كل حياته من خلال عدد كبير من المقتنيات والتحف الفنية والمنسوجات الرائعة والزرابي وقناديل المساجد وغيرها.

ولم يكن هذا أوّل إسهام لجورج مارسيه في التعريف بقيمة

---

(1) أشار إلى ذلك ألان مسعودي في مقاله:

Messaoudi, Alain: DEUX SAVANTS ORIENTALISTES DANS L'ALGÉRIE COLONIALE: WILLIAM ET GEORGES MARÇAIS, op. cit., p.285.

والمنمنمات أو فن التزويق miniatures, illumination فن يقوم على تزيين الكتب والمخطوطات بالرسوم الدقيقة، وتعود أصوله إلى الحضارة الهندية والفارسية. ومن أولى المؤلَّفات الإسلامية التي ظهرت فيها المنمنمات "كليلة ودمنة" لابن المقفع، ومقامات الحريري؛ انظر في هذا الشأن:

Pächt, Otto (1986): Book Illumination in the Middle Ages (translated from German), Harvey Miller Publishers, London.

الفن الإسلامي في بلاد المغرب. فمنذ عام 1905، حين انتظم معرضٌ للفن الإسلامي في قاعات مدرسة الجزائر على هامش مؤتمر الاستشراق والجمعيات العلمية والتعاونية، نشر صاحبنا بهذه المناسبة كتاباً تعريفياً هو كتاب "الفن في الجزائر"[1]، قدّم فيه القطع الفنية المعروضة التي استعارها من أعيان المسلمين في الجزائر، وخصوصاً من تلمسان، أو من بعض الغربيين من هواة تجميع القطع الأثرية. وتوزعت المعروضات في قاعات مختلفة خصصت إحداها لعرض الزرابي، وأخرى للفنون البربرية، وثالثة للقطع الفنية المغاربية، ورابعة للقطع الفنية المشرقية. وكانت هناك أيضاً قاعات لمنتجات فنية صُنعت في أوروبا وموجّهة لأسواق بلاد المغرب. وكان الغرض من ذلك المعرض تقديم نموذج ودروس عملية للحرفيين العاملين في صناعة القطع الفنية، سواء من بلاد المغرب أو من الأوروبيين، والعاملين في

(1) **Marçais**, Georges: L'Art en Algérie, Alger, Imprimerie algérienne, 1906 (chap. « L'art sous la domination française »), quoted by **Messaoudi**, Alain, in: **Messaoudi,** Alain: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? La science des arabisants et la politique touristique à Tlemcen, Kairouan et dans les villes impériales du Maroc (v. 1890-v. 1920), in: Colette **Zytnicki** et Habib **Kazdaghli** (dir.), Le Tourisme dans l'empire français. Politiques, pratiques et imaginaires (19e-20e siècles). Un outil de la domination coloniale? Paris, Publications de la SFHOM, 2009, pp. 165-179; the quote is from p. 173.

صناعات الصوف والجلود والخزف. وقد أُقيم المعرض في مبنى حديث دُشّن قبل ذلك بعام، واتسم بناؤه، على شاكلة مدرسة تلمسان ومدرسة قسنطينة، بتصميمه الموريسكي المتأخر. وكان اختيار ذلك التصميم صدى لمقترحات من جورج مارسيه بأن يعكس سمات العمارة الإسلامية ويؤسس لأسلوب معماري جزائري ما زال قيد الاستكشاف[1].

وفي عام 1935، أسس مارسيه معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة الجزائر l'Institut d'études orientales d'Alger وتولّى إدارته. كانت لديه رؤية واضحة لوظيفة هذا المعهد منذ تأسيسه؛ فهو في نظره مؤسسة من مؤسسات التعليم العالي في الجزائر، وكأي من تلك المؤسسات فإنه يضطلع بمهمتين: "مهمة تعليمية وأخرى بحثية. فالمهمة الأولى امتداد طبيعي للتعليم الثانوي ... وتتمثل في تزويد الطالب برصيد من المعارف في المجال الذي يشعر فيه بأنه الأقدر... وإعداده لا ليكون مجرّد تلميذ متلقٍّ ولكن ليكون تلميذاً يدرس القضايا المطروحة أمامه وهو يدرك أن النتائج التي سيتوصل إليها ليست نهائية، وأن يتعلم كيف يطرح الأسئلة الملائمة ويتسلح بالمناهج الملائمة لحلها ..."

(1) انظر هذه التفاصيل ضمن مقال ألان مسعودي:
Messaoudi, Alain, in: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? op. cit., p. 173.

وأما المهمة البحثية، "فتتخذ في بلد كالجزائر أهمية ظاهرة، كما يقول مارسيه، تُحمّل القائمين عليها ... مسؤولية عاجلة بالغة الخطورة ... وتتمثل في إعداد الخريجين لدراسة عالم كل ما فيه بحاجة للاستكشاف ... وإن موقع أستاذ في كليات جامعة الجزائر ليس الكرسي الذي يشرف عليه بقدر ما هو المدينة التي يعيش فيها، مما يجعل مهمّته دائمة مستمرة..."

ويواصل مارسيه بسط رؤيته لوظيفة معهد الدراسات الشرقية بالجزائر فيقول: "إن في مجتمع شمال إفريقيا المسلم، بمعتقداته وماضيه وحياته المادية وتقاليده وآدابه وفنونه ولهجاته، موضوعات متنوعة وغنية جداً تستحق الدرس، وإن ما صدر من كتب ومقالات تناولت ذلك المجتمع بالدرس لَكفيل بأن تزدان به رفوف أيٍّ من المكتبات المعتبرة، وهي من تأليف أساتذة بارزين يعملون في كليات الآداب والقانون لدينا...".

وبناء على ذلك، يرى مارسيه أنّ على هؤلاء الأساتذة أن يكــون كلٌّ منهم "متخصصاً مبدعاً في مجاله، سواء كانوا جغرافيين، أو رجال قانون، أو مؤرخين، أو لغويين. لكن دراسة البيئة والسكان هنا [يقصد شمال إفريقيا] تخضع لظروف خاصة... وتقتضي من العالِم أن يتعلم كيف يتعامل مع نتائج تحققت له في بيئة ليست بيئته. ولا يمكن لدراسة ماضي هذه

البلاد أن تنفصل عن دراسة حاضرها... فدراسة التضاريس والمناخ يجب أن تسير، جنباً إلى جنب، مع دراسة المجتمعات المختلفة وما بقي فيها من ضروب السحر والطقوس القديمة. وعلى العالِم أيّاً كان تخصصه أن يظل مطّلعاً على كل ذلك. وإنّ أي تقدّم يتحقق في مجال من المجالات يمكن أن تفيد منه المجالات القريبة وحتى البعيدة. ومن هنا تأتي أهمية التواصل بين الباحثين وتوثيق العلاقات بين المخابر البحثية؛ وهنا تكمن أهمية معهدنا، معهد الجزائر للدراسات الشرقية...".

ويرى مارسيه أن مجال اهتمام الباحث في معهد الدراسات الشرقية بالجزائر يتصل "أساساً ببيئة أسهم الإسلام الذي جاء من المشرق في إسباغ مسحة شرقية عليها، سواء من حيث اللغة أو الحضارة أو المؤسسات القانونية أو نمط الحياة ... ممّا يجعل جامعة الجزائر، هذه الجامعة الكبيرة من جامعات [الإمبراطورية] الفرنسية، المركز الأمثل لتقديم العلوم الإسلامية وعلوم الثقافة العربية. ولا حاجة للتذكير بأنّ التدريس في هذه الجامعة والعمل في المكتبة تعضدهما إمكانات لا مثيل لها بما توفره هذه البلاد للفكر الطُلَعة من فرص الحديث والملاحظة والاستئناس بالواقع الحي".

ويختم جورج مارسيه تقديمه للمعهد وسياسته البحثية بقوله: إن كل نشاطات المعهد والأعمال التي يصدرها تشهد بأن "جامعة

الجزائر تعمل قدر المستطاع على الحفاظ على سمعة فرنسا الفكرية في هذه البقعة من شمال إفريقيا، وتسعى بوجه خاص إلى أن لا تبقى صغيرةٌ ولا كبيرةٌ عن الإسلام خَفيّة على فرنسا"[1].

نجح مارسيه في إلحاق معهد الدراسات الشرقية بالأكاديمية الفرنسية للآثار والفنون الجميلة بدءاً من عام 1940، وظل مديراً له حتى عام 1944، حين أُحيل إلى التقاعد المباشر مؤقتاً، بسبب تبنّيه سياسات جورج هاردي التعليمية في المستعمرات الفرنسية[2]،

---

(1) انظر جميع الاقتباسات الواردة أعلاه عن معهد الدراسات الشرقية بالجزائر ضمن وثيقة أعدّها جورج مارسيه بعنوان:
"L'Institut d'Etudes Orientales d'Alger", document no.18 de la série: *Culturelle, 20/5/1947, Rubrique LETTRES,*
File:///F:/Georges Marçais/6_culturel_institue_etudes_orientales_alger_18.htm

(2) كان **جورج هاردي** Georges Hardy (1884-1972) مدير التعليم العام في المغرب خلال الاحتلال الفرنسي في الفترة (1926-1934) وموجه التعليم في الجزائر بين عاميْ (1940-1943)، خلال حكومة فيشي الفرنسية برئاسة الماريشال بيتان الذي تعاون مع الاحتلال النازي لفرنسا. كان جورج هاردي يؤمن بإرساء نظام تعليمي تشرف عليه سلطات الاستعمار ويستجيب لاحتياجات مختلف الجماعات العرقية في بلاد المغرب. وكان يحذّر من أنّ نظاما تعليميا يخرّج نُخَبا وطنية عديدة لا يمكن لإدارة الاحتلال أن تستوعبها أمر خطير، إذ قد يفضي إلى خلق شعور بالإحباط في صفوفها ويجعلها تنخرط في الحركة الوطنية وتنضم إلى جماعات المطالبين بالاستقلال. لذلك كان هاردي ينادي بتكوين =

لكنه استمر مديراً لمتحف الآثار القديمة والفن الإسلامي. وتشير بعض المصادر إلى أن جورج مارسيه كان يعارض، فيما يبدو، فكرة استقلال الجزائر عن فرنسا، خلافاً لأخيه الأكبر وليام الذي اعترف بوجود معارضة معلنة أو متخفية أو حتى رمزية تقاوم الاحتلال الأجنبي في بلاد المغرب[1].

في تلك الفترة، انتقل مارسيه للتدريس في معهد الدراسات العليا بتونس حتى عام 1958، وخَلَفه على كرسي الفن والحضارة الإسلامية بجامعة الجزائر تلميذه لوسيان جولفـان Lucien Golvin

---

= أقلية من الكوادر المحلية تحتاجهم الإدارة الفرنسية لتصريف شؤون المستعمرات، وأن يكون هناك في الوقت نفسه نظام تعليميّ عامّ منفصل تماما عن مدارس النخبة، يقوم على مدارس شعبية تستوعب أغلب السكان فتقدم لهم برامج تعليمية أساسية تراعي احتياجاتهم الضرورية وترفع من نمط حياتهم التقليدية دون أن تجتثّهم من محيطهم أو تفقدهم توازنهم. ويبدو أن جورج مارسيه قد تبنّى هذا الموقف أيضاً فأحيل إلى التقاعد لمّا تعرّض هاردي للمحاسبة من قِبل سلطات فرنسا بعد الاحتلال النازي؛ لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن، انظر:

Segalla, Spencer D. : Georges Hardy and Educational Ethnology in French Morocco, 1920-26, *French Colonial History 4* (1), January 2003, pp.171-190.

(1) أشار إلى ذلك ألان مسعودي في مقاله:

Messaoudi, Alain: DEUX SAVANTS ORIENTALISTES DANS L'ALGÉRIE COLONIALE: WILLIAM ET GEORGES MARÇAIS, op. cit., p.285.

(1908-2002) المتخصص هو أيضاً في فنون بلاد المغرب العربي. ثم عاد إلى فرنسا بعد تقاعده، في فترة وافقت أواخر الفترة العصيبة التي شهدتها حرب التحرير في الجزائر، وتوفي في مقر إقامته في ضواحي باريس، يوم 20 مايو 1962.

كتب زميله المؤرخ الفرنسي روجيه لو تورنو[1] في تأبينه فقال: "فُجعت الدراسات الإسلامية الفرنسية هذا اليوم بوفاة جورج مارسيه، ذلك الفنان المرهف من مقاطعة بريطانيا، الذي اتجه أول حياته لدراسة... الفنون الجميلة، حيث تفتقت مواهبه في فن الرسم... قبل أن يستقر في الجزائر... لينجز دراسات وبحوثاً تناولت مجالاً أثبت فيه بحقّ أنه المتخصص الأقدر... وقد ترك لتاريخ الفن والحضارة في المغرب العربي أعمالاً بالغة الأهمية... كما ترك بعد التقاعد ذكرى مشرقة لأستاذ محبوب جمع بين الكفاءة العالية والرفق بطلابه"[2].

---

(1) **روجيه لو تورنو** Roger Le Tourneau (1907-1971)، مؤرخ فرنسي، تخرج في المعهد العالي للمعلمين بباريس. من أعماله كتابه عن "مدينة فاس في العهد المريني" وكتابه عن "حركة الموحدين في شمال إفريقيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد" (الذي نشر بالفرنسية عام 1969، ثم ترجم إلى الإنجليزية عام 2016، في جامعة برينستون، الولايات المتحدة).

(2) انظر مقال التأبين كاملا في صحيفة لوموند الفرنسية، العدد الصادر يوم 24 مايو 1962.

كان جورج مارسيه عضواً مراسلاً للأكاديمية الفرنسية للآثار والفنون الجميلة l'Académie des inscriptions et belles-lettres التابعة لمعهد فرنسا، ثم صار عضواً مستقلاً بها خلال الفترة من عام 1940 وحتى وفاته عام 1962. وكان كذلك عضواً في عدد من الهيئات والمراكز العلمية ذات العلاقة بالآثار والفنون الجميلة في شمال إفريقيا، ومن بينها اللجنة العلمية المشرفة على نشر وثائق الحفريات الأثرية في شمال إفريقيا، والأكاديمية الملكية البلجيكية لعلوم الآثار ببروكسيل. وقد حصل على الجائزة الكبرى للآداب عام 1951 تقديراً لمجمل أعماله وإنجازاته العلمية[1]، وعلى وسام جوقة الشرف من حكومة فرنسا Officier de la Légion d'honneur.

(1) **Messaoudi**, Alain: "Marçais Georges", in: François Pouillon (ed.): Dictionnaire des Orientalistes de langue française, ISSMM-Karthala, 2nd. ed., Paris, 2008, pp. 640-64.

لمحة عامة عن أعماله العلمية

كان جورج مارسيه مستعرباً بامتياز، وعُرف بحبّه للغة العربية وبحوث الآثار والفن الإسلامي. قضى كامل حياته العملية والعلمية في الجزائر بين التدريس والبحث، وسخّر نشاطه ومواهبه على مدى أكثر من نصف قرن للتدريس الجامعي وخدمة التاريخ والفن الإسلامي. وشكّل الفن المعماري محوراً لأهم دراساته، لكنه اهتم أيضاً بدراسة الحِرَف والصناعات اليدوية (ذات الصلة بالتحف والثياب التقليدية). وكان يؤمن بأن الفن لا ينبت ويزدهر منعزلاً عن محيطه، ولذلك أدرك أنه لا بد من دراسة المجتمع الذي ينتج ذلك الفن دراسة متعمقة لاستيعاب حقيقته وأسراره. ولهذا انصرف إلى تأليف عدد من الكتب والأعمال تناول فيها تاريخ المنطقة دون أن ينصرف عن هوايته الأولى كرسام.

وقد ألّف عدداً كبيراً من الكتب والمقالات بلغ ما لا يقل عن 30 كتاباً وأكثر من 150 بحثاً ومقالاً منشوراً في عدد من الدوريات العلمية المرموقة[1]، وكانت هيئات التحرير بالمجلات

(1) أورد هذا الإحصاء لأعمال جورج مارسيه كزافييه فيريو ضمن ترجمته لسيرة جورج مارسيه؛ انظر: =

العلمية تتنافس لتحظى بشرف أن تنشر له بين صفحاتها دراسة أو مقالاً. وقد جعلت منه تلك الأعمال، بالإضافة إلى دروسه ومحاضراته، زعيم مدرسة علمية بلا منازع، هي مدرسة الآثار والفن الإسلامي في بلاد المغرب. وحفظت له أكاديمية الآثار والفنون الجميلة بعضاً من أعماله، ودعته قبيل الحرب العالمية الثانية للاستفادة من خدماته. كما جُمعت أهم دراساته وبحوثه في المجلد الأول من كتاب (دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي وآثاره)[1] الذي أُهدي إليه بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، ونُشر في الجزائر عام 1957. ولعلنا نستعرض في عجالة أهم تلك الأعمال.

تجسدت أبحاث جورج مارسيه التاريخية في عملين مهمّين: أولهما رسالته التي أعدها عام 1913 لنيل درجة الدكتوراه عن "تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر"؛ والآخر كتابه عن "بلاد البربر الإسلامية والمشرق في القرون الوسطى" الذي نشر عام 1946، ويعكس الكتابان سمات المؤرخ الرصين وعالم الآثار، التي اجتمعت في

= **FERRIEU,** Xavier (Bibliothèque municipale de Rennes) https://www.bibliorare.com/coin_du_bibliophile_bis.htm

(1) Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, t1: Articles et Conférences de Georges Marçais (261 p.); t2: Hommages à Georges Marçais (193 p.), (Publications du Gouvernement Général de l'Algérie), Alger, 1957.

شخصه. كما خصص لتلمسان كتاباً بالغ الأهمية نشره بالاشتراك مع أخيه وليام عام 1903 ودرس فيه الأَخَوان "الآثار العربية في مدينة تلمسان" وتاريخها، ولنا مع هذه الأعمال الثلاثة وقفة أكثر تفصيلاً، لاحقاً في هذا الكتاب.

وكان جورج مارسيه محبّا للرحلات، أمضى فترة من حياته في رحلات علمية تنقّل خلالها بين مناطق شمال إفريقيا وإسبانيا وصقلية، وأثمرت تلك الرحلات كتاباً فريداً في مجلدين نشرته دار بيكار بين عامي 1926-1927، ضمن سلسلتها حول الآثار وتاريخ الفن، هو كتاب "الوجيز في فن العمارة الإسلامية: تونس، الجزائر، المغرب، إسبانيا، وصقلية". ثم أُعيد نشره عام 1955 في طبعة جديدة منقحة تحت عنوان "العمارة الإسلامية في بلاد المغرب"[1]. ولنا مع هذا الكتاب في طبعتيْه وقفة أيضاً، لاحقاً في هذا العمل.

ومن كتبه عن الجزائر خاصة كتابه "الثياب الإسلامية في مدينة الجزائر" Le costume musulman d'Alger (1930)؛ وكتابه عن "الفن الإسلامي في الجزائر" L'Art musulman en Algérie (1931)؛ وكتابه "الجزائر المسلمة: أطلس تاريخي، وجغرافي واقتصـــادي" L'Algérie Musulmane, Atlas historique,

(1) **Marçais,** Georges; L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, 1955.

géographique et économique (1934)، وكتابه "تلمسان المدينة الحية" Tlemcen citta réale (1934)؛ وكتابه "مدينة الجزائر البربرية" Alger barbaresque (1937).

ومن أعماله أيضاً كتاب عن "شمال إفريقيا الفرنسية عبر التاريخ" L'Afrique du Nord française dans l'histoire الذي ألّفه بالاشتراك مع إي. ألبرتيني E. Albertini و ج. إيفار G. Yver ونشر عام 1937، وقد درس فيه حركة التطور التي مرت بها منطقة شمال إفريقيا الفرنسية عبر التاريخ. ودراسته عن "فنون التطريز التركيـــة فـــي مدينـة الجزائر" Les broderies turques d'Alger (1937). وله دراسة صدرت عام 1914 عن "مزهريتين من بلاد القبائل اكتُشفتا في مدينة قسنطينة" Notice sur deux vases kabyles trouvés à Constantine؛ ودراسة أخرى لعلبة حليّ قبائلية Notice sur un coffre kabyle صدرت عام 1927، وكذلك المقال الذي نشره عن محمد راسم، والصادر في صحيفة الفنون الجميلة La Gazette des Beaux Arts عام 1939. وتوّج تلك الأعمال عام 1946 بكتاب صغير لكنه بالغ الأهمية ضمن سلسلة (لاروس: فنون وأساليب وتقنيات Larousse Arts, Styles et Techniques) هو كتاب "الفن الإسلامي"[1]، وقد حدد فيه كل ما

(1) **Marçais,** Georges : L'Art Musulman, Collection Quadrige, Presses Universitaires de France, 1946; 1991.

يجب معرفته عن سمات الفن الإسلامي بصورة عامة. ولنا وقفة أكثر تفصيلاً مع هذا الكتاب لاحقاً في هذا العمل. وله أيضاً كتاب نشره عام 1960 بالاشتراك مع الرسام الجزائري محمد راسم عن "حياة المسلمين في الماضي" La Vie musulmane d'hier.

ونشر مارسيه بين عاميْ 1937 و1950، كتابين ضمن سلسلة (مدن الفن الشهيرة Les Villes d'Art Célèbres) كان لهما فضل كبير في تعريف القارئ الفرنسي العامّ بأهم مراكز الفن الإسلامي في تونس والجزائر. وقد تحدّث في الأول منهما عن مدينتيْ تونس والقيروان[1]، وسنقف معه وقفة أكثر تفصيلاً لاحقاً في هذا الكتاب. وألحقه بثانٍ عام 1950، خصصه لمدينة تلمسان[2]، وحاول فيه إبراز قيمة الآثار العربية الإسلامية التي تمتاز بها تلمسان بنسيجها الأصيل الذي يعود إلى القرون الوسطى، وتقاليد سكانها العريقة التي تمنح المدينة قيمة حقيقية تجعلها وجهة سانحة للسائحين. كما تحدّث في الكتاب عن أحياء تلمسان القديمة؛ فبيّن أنها ليست مجرد مشهد ساحر يبهر الرحالة من هواة العصر الرومنسي، وإنما هي رصيد من التراث الأصيل

(1) **Marçais**, Georges: Tunis et Kairouan, dans Les Villes d'Art Célèbres, Paris, Henri Laurens, 1937.

(2) **Marçais**, Georges: Tlemcen, Paris, H. Laurens, 1950.

الذي يقتضي وقفةَ احترام واعتمادَ سياسة منظمة للحفاظ عليه واستثماره وفق معايير الحداثة[1].

كما كانت لجورج مارسيه مشاركات في مؤلفات تاريخية وفنية عديدة، من بينها، على سبيل المثال، مقدمته لكتاب الروائي ورجل السياسة الجزائري الشريف بن حبيليس (1885-1959) "الجزائر الفرنسية في نظر مواطن جزائري" :Chérif Benhabylès L'Algérie française vue par un indigène الصادر عام 1914. وله كذلك فصل مهمّ عن الفن الإسلامي في بلاد المشرق من عام 395-1081، يُعدّ تتمّةً لكتابه عن العمارة الإسلامية في بلاد المغرب، وقد ضمّنه كتاب "التاريخ العامّ" L'Histoire Générale لجوستاف جلوتز[2].

---

(1) أشار إلى ذلك ألان مسعودي ضمن مقاله:
Messaoudi, Alain: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? La science des arabisants et la politique touristique à Tlemcen, Kairouan et dans les villes impériales du Maroc (v. 1890-v. 1920), op.cit.; the quote is from p.167.

(2) **جوستاف جلوتز** Gustave Glotz (1862-1935)، مؤرخ فرنسي، من أشهر أعماله كتاب التاريخ العام L'Histoire Générale وهو كتاب أشرف على تأليفه وأسهم فيه عدد من المؤرخين الفرنسيين، وصدر في عدة مجلدات بين عاميْ 1926-1952، ويغطي مراحل التاريخ من العصر اليوناني القديم وحتى القرون الوسطى.

وإذا كان جورج مارسيه قد سعى في دراساته وأبحاثه إلى التأسيس لمفهوم الفن الإسلامي في بلاد المغرب، فإنه لم يغفل دراسة الفن المعماري في المشرق من خلال بحوث مشتركة مع المستشرق الفرنسي الآخر، جاستون فييت Gaston Wiet (1887-1971).

سُئل جورج مارسيه في إحدى المناسبات أي مؤلفاته أحبُّ إلى قلبه، فردّ بعبارة فيها غير قليل من الفكاهة المرِحة: "طبعا هو الكتاب الذي أنا عاكف على تأليفه!"؛ وفي ردّه هذا ما ينمّ عن أنّ الاستراحة بالنسبة إلى هذا العالم المبدع إنما هي فسحة ينطلق منها نحو مشروع جديد[1].

(1) من حوار لجورج مارسيه أجرته الصحفية الفرنسية الجزائرية ألبيرت سادوييه، ونشر في مجلة "الجزائر" الناطقة بالفرنسية *Revue Algeria* في فبراير 1952. انظر الحوار الكامل على الرابط:
http://www.editions-du-tell.com/fr/fichiers/popmarcais.htm

قراءة في بعض كتبه وأعماله
مع مقتطفات منها

حول كتاب "معالم التراث العربي في مدينة تلمسان"[1]

هذا المؤلَّف مشترك، ألّفه الأخوان وليام وجورج مارسيه، وهو الثالث من سلسلة أعمال أشرفت على نشرها الحكومة العامة الفرنسية في الجزائر. وجاء الكتاب في 358 صفحة، وتَضمَّن 30 لوحة و82 صورة. وقد حرص المؤلفان في مقدمة كتابهما على تأكيد أن هناك حاجة - رغم كثرة ما كُتب عن مدينة تلمسان - إلى عمل كهذا يتناول مجمل الفن التلمساني وصلاته بالفن الإسلامي الأندلسي. ويذكر المؤرخ جيلبير جاكتون Gilbert Jaqueton أن المؤلفيْن "أحدهما مستعرب ومؤرخ، والثاني فنان ورسام موهوب، وهما بالتالي مؤهَّلان عن جدارة للاضطلاع بهذه المهمة، وقد نجحا في ذلك باقتدار"؛ ويضيف:

(1) **Marçais**, William et **Marçais**, Georges. Les Monuments arabes de Tlemcen. Paris, Fontemoing, 1903 (Ouvrage publié sous les auspices du gouvernement général de l'Algérie, Service des monuments historiques de l'Algérie).

"إن لمدينة تلمسان طابعاً فنياً أخّاذاً، وقد شعر به المؤلفان وعبرّا عنه بكل صدق ومحبة، وقد أسبغ ذلك على دراستهما طعما لا نجده في كثير من المؤلفات الأثرية. ولا يمكن لأحد أن يلومهما على ذلك، خصوصاً وأن الموضوع يستحق ذلك الحماس الذي صدرا عنه في الكتاب"[1]. ويشير جاكتون في سياق تقديمه كتاب جورج مارسيه الآخر "الوجيز في فن العمارة الإسلامي" إلى أن كتاب الأخوين مارسيه هذا عن تلمسان تضمّن مقدمة من مائة صفحة يمكن أن نعدّها بحق موجزاً صغيراً عن الفن العربي في بلاد المغرب ككلّ[2].

يستعرض المؤلفان تاريخ المدينة وتطورها منذ العهد الروماني القديم، حين كانت تجمُّعا من ثلاث مدن صغيرة

(1) **Jaqueton,** Gilbert (compte-rendu): William Marçais et Georges Marçais. Les Monuments arabes de Tlemcen (Service des monuments historiques de l'Algérie), In: *Bibliothèque de l'école des chartes*. 1904, tome 65. pp. 611-615; https://www.persee.fr/doc/bec_0373-6237_1904_num_65_1_461406_t1_0611_0000_2.
والمعلومات الواردة في عرضنا هذا للكتاب مقتبسة في جانب كبير منها من هذا المقال.

(2) **Jaqueton**, Gilbert: Georges Marcais, Manuel d'art musulman… (compte rendu), www.persee.fr/doc/bec_0373-6237_1928_num_89_1_460508_t1_0123_0000_001

متلاصقة مركزها حقول البساتين (وكان يُعرف في عهد الرومان باسم "بوماريا" Pomaria، أي البساتين) الواقعة إلى الشمال الشرقي من موقع المدينة الحالي، وألتافا Altava (lamorciere) ونوميروس سيروروم Numerus Syrorum (مارنيا marnia).

ثم يستعرض المؤلفان ما طرأ عليها من تغيرات عمرانية بعد الفتح الإسلامي، حين تحوّل اسم بوماريا إلى أغادير (القلعة). ثم جاء القائد المرابطي يوسف بن تاشفين في نهاية القرن الحادي عشر ومطلع الثاني عشر فأسس مدينة تلمسان الحالية واختار لها موقعاً مرتفعاً جنوب غربي أغادير، وسمّاها تاغرارت (المعسكر). وبدأت مدينة أغادير تفقد أهميتها تدريجياً لما قدم الموحدون منتصف القرن الثاني عشر، وبعدهم بنو عبد الواد المعروفون أيضا ببني زيان (منتصف القرن الثالث عشر). وحين قدم بنو مرين في النصف الأول من القرن الرابع عشر، أسسوا (المنصورة)، ثالث التجمعات العمرانية التي قامت عليها مدينة تلمسان، وتقع إلى الغرب من تاغرارت، واتخذوا منها معسكراً دائماً خلال حصارهم تلمسان. ولم يلبث بنو عبد الواد أن دمّروا مدينة (المنصورة) حالمَا استولوا على الحكم.

يشير الأخوان مارسيه إلى أن المعالم الأثرية في مدينة تلمسان (باستثناء المبنى الرئيس الذي قام عليه المسجد الجامع

الذي يعود إنشاؤه إلى القرن التاسع) تعود إلى مرحلة امتدت مائة عام من منتصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر، أي إنها تنتمي إلى الفترة نفسها التي تعود إليها المعالم العمرانية الشهيرة التي عُرفت بها مدينة غرناطة، ومن الجائز جداً أن يكون بينها مواطن تشابُه. وتتوزع هذه المنشآت العمرانية عموماً إلى مجموعتين تعودان إلى فترات تاريخية متداخلة شيئاً ما، وإن كان لا بد من الفصل بينها، وهي المباني التي أنشأها بنو عبد الواد، والتي أنشأها بنو مرين.

ولعل جوهرة مباني المجموعة الأولى في نظر الأخوين مارسيه، هي مسجد سيدي أبي الحسن الرائع، الذي صار ملحقاً بالمتحف حاليا؛ وقد كانت هناك فكرة غير مناسبة مطلقاً في بداية مرحلة الاستعمار بتحويله إلى مخزن للعلف، لكنَّ حريقاً شبّ في المبنى فأحدث فيه تلفاً مُروّعاً. لكن ما بقي من المبنى ولم يتم ترميمه بالكامل حتى الآن يعطي فكرة جيدة جداً عن طابع الفن المعماري التلمساني في نهاية القرن الثامن الهجري، وهي الفترة التي يعود إليها بناء المسجد.

ورغم مقاسات المبنى المتواضعة وتصميمه البسيط جداً (إذ هو عبارة عن مربع طول ضلعه عشرة أمتار مقسمة إلى ثلاثة أجنحة)، تظل مساحته مناسبة تماماً وزخارفه رائعة بكل المعايير.

وقد أصاب الأخوان مارسيه حين وصفا المحراب بأنه "تحفة في روعة الإبداع والذوق الراقي". وكذلك الأمر بالنسبة إلى زخارف الجدران كلها.

ويواصل الأخوان مارسيه: "وأمّا العناصر التي مُلئت بها مساحة المسجد، فتشهد على مهارة فنية دقيقة، مستقلة إلى حد شبه كامل عن أي تأثير بيزنطي، وتنمّ عن قدر من الإبداع فيه غير قليل من المرونة وأصالة الابتكار. ويمثّل هذا المسجد الذي أنشأه بنو زيان واحداً من أقدم المعالم الأثرية في مدينة تلمسان، وعلى منواله أُنشئت جميع الأجزاء المتبقية من مبنى القصر Alcazar ومسجد الحمراء، ويحمل آثار ثقافة فنية لا يمكن مضاهاتها".

وليس هذا المسجد في نظر الأخوين مارسيه مجرّد مَعْلَم يستحق الدراسة في ذاته بوصفه واحداً من أجمل إبداعات الفن الإسلامي، بل إنه "لعالم الآثار مثال مهمّ لم يطرأ عليه أي تغيير، وله تاريخ معلوم، في تفاصيله المنتمية لتلك الحقبة الموريسكية الجميلة؛ بل إنه يختلف عن معالم تلمسان الأثرية جميعها في كونه أقربها إلى طابع القصور الإسبانية: بزخارفه الكتابية والنباتية التي تشهد بوجود صلات قرابة واضحة". وتضاف إليه تلك التلبيسات الرائعة من خشب الأرز التي لم ينجُ من الحريق منها سوى بضعة أمتار، والتي تكسو سقف أجنحة المصلّى.

ويرى الأخوان مارسيه أن مسجد سيدي أبي الحسن ليس هو النموذج الوحيد للطابع الفني لهذه الفترة. فقد كان أمراء السلالة الأولى من بني عبد الواد، وعلى رأسهم مؤسسها يغمراسن بن زيان (1239-1282) وحتى أبو تاشفين الأول، آخر أمرائها (1322-1337) من البنائين العظام، عمروا مدينة تلمسان بمبانيهم المدنية والدينية على السواء. ولم يبق منها سوى بعض النماذج، وخصوصاً مئذنتَا الجامع الكبير وجامع أغادير اللذين يعود بناؤهما للأمير يغمراسن، ومئذنة "المشوار" التي طرأ عليها بعض التحوير، والتي تعود للأمير أبي حمو الأول (حوالي 1317)، وأخيراً جامع أولاد الإمام الذي بناه الأمير أبو حمو كذلك في حوالي عام 1310، والذي يشبه في طابعه المعماري مسجد سيدي أبي الحسن، كما أثبت ذلك الأخوان مارسيه، وإن كان بناؤه قد تقادم فلم يعد هناك مجال لترميمه.

وأما قصر المشوار الكبير، الذي بُني في عهد الأميرين يغمراسن وأبي حمو الأول، والقصور العديدة التي بنيت في عهد الأمير أبي تاشفين، والمدرسة القديمة التي أُلحق بها مسجد أولاد الإمام، وكذلك المدرسة التاشفينية التي تحوي قطعاً جميلة من الفسيفساء (تعود إلى القرن الخامس عشر) ويمكن مشاهدتها متفرقة بين متاحف تلمسان والجزائر وجلوني Gluny ومتحف

سيفر الأول Sèvres I، فيلاحظ الأخوان مارسيه أننا لا نعرف عنها سوى القليل من خلال بعض النصوص الغامضة.

ليست السمات الفنية للعمارة التلمسانية في هذه المرحلة الأولى من حكم بني عبد الواد سماتٍ محلّيةً في نظر الأخوين مارسيه؛ بل إن مهندسين ورسامين قدموا من إسبانيا الإسلامية، عُرفوا بالأندلسيين بين أهل المغرب ولا يزالون، هم الذين أَنشؤوا هذه المباني. ويشير الأخوان مارسيه بكل اقتدار إلى نص لابن خلدون في هذا الشأن جاء فيه أن "الفنون كانت بدائية جداً في عهد الأمير أبي حمو وابنه أبي تاشفين، لأن الأسرة التي اتخذت من هذه المدينة عاصمة لحكمها كانت لا تزال على خشونة حياة البداوة". فاستقدم الأميران من الأندلس أفضل المهندسين والعمّال والحرفيين، وازدانت مدينة تلمسان بفضلهم بقصور بلغت درجة من الجمال الفني لم تعرف المدينة مثلها منذ ذلك العهد. ولهذا السبب تكتسب معالم تلمسان العمرانية في عهد بني عبد الواد قيمة أثرية خاصة في نظر الأخوين مارسيه؛ إذ تعكس سماتٍ بارزةً للفن الغرناطي، خصوصاً وأن هذه المعالم ترجع إلى مرحلة تاريخية سبقت كثيراً من المعالم التي لا تزال باقية في غرناطة نفسها.

وأما مجموعة المنشآت التي قامت في عهد بني مرين، وهي كثيرة مقارنة مع تلك التي أنشأها بنو عبد الواد، فتكتسي أهمية

أكبر في نظر الأخوين مارسيه. ذلك أن أمراء بني مرين أقبلوا على العمارة والبناء دون هوادة. فمنذ قدومهم على الساحة خلال حصارهم الأول لمدينة تلمسان (1298-1306) بقيادة الأمير أبي يعقوب المريني، أنشؤوا مدينة "المنصورة" بسورها الممتد وجامعها الفسيح ومئذنته القائمة حتى الآن. وبعد سقوط تلمسان، أقبل بنو مرين خلال ربع القرن الذي استمر فيه حكمهم للمدينة على البناء، وزيّنوا مدينة المنصورة بقصر فاخر، وأنشؤوا مسجديْ سيدي بومدين وسيدي الحلوي اللذين يحملان مميزات العمارة المرينية الخالصة.

ويلحظ الأخوان مارسيه أن فن العمارة المريني ربما يبدو أقل نعومة ونضجاً من نظيره في عهد بني عبد الواد؛ فزخارف الجدران في مسجديْ سيدي بومدين وسيدي الحلوي تبدو أقل تنوعاً ونفاسة، لكنها أكثر حيوية وفخامة. فمن حيث التصميم الهندسي، تعدّ مئذنة مسجد المنصورة المربعة الشكل تحفة معمارية بكل المعايير، وللمسجد باب واسع جميل ينفتح إلى الأسفل، ويرى الأخوان مارسيه في تصميمه شبهاً كبيراً بباب أكناو[1] في

(1) هو أحد أبواب أسوار مدينة مراكش التسعة عشر، وهو باب داخلي يفصل قصبة مراكش عن باقي المدينة، يعود تأسيسه إلى عهد الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، حوالي سنة 1188 -1190. وتظهر صورته على أوراق العملة المغربية المسكوكة في عهد الملك محمد الخامس.

مراكش، وباب النبيذ[1] (La Puerta del Vino) في غرناطة. وإلى أعلى الباب شرفة رائعة مثلثة الشكل فوق قباب مجوّفة، تعلوها لوحة كبيرة مشبّكة بها نوافذ ضيّقة مرصّعة بزخارف خزفية. وإلى قمة البرج، يمتد شبه رواق من الأقواس القائمة على أعمدة صغيرة، ينتهي بقاعدة مسنّنة تعلوها آثار بناء بات اليوم منهاراً.

وتتميز نقوش المباني المرينية بالقدر نفسه من القوة الفنية، في نظر الأخوين مارسيه، خصوصاً تيجان الأعمدة في جامع المنصورة وقصرها، وكذلك محراب مسجد سيدي أبي مدين.

وكما كان الشأن في المرحلة السابقة، يرى الأخوان مارسيه أن فن العمارة المرينية لا ينتمي إلى مدرسة محلّية ولا حتى إقليمية، وأن جميع الفنانين والحرفيين الذين استعملهم أمراء بني مرين ليسوا على الأرجح من تلمسان ولا حتى من المغرب،

(1) هو واحد من أقدم أبواب قصر الحمراء بغرناطة، يقدّر أن تأسيسه كان في أواخر القرن العاشر، في عهد المهدي بالله محمد الثاني، رابع خلفاء الأمويين في قرطبة، ويرجح أن اسم الباب في الأصل هو "باب الحمراء" لأنه يقود إلى مدينة الحمراء الممتدة إلى الأعلى، وأن تسميته بباب النبيذ تعود لما بعد سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، وذلك لأن سكان الحمراء من الممالك الغازية كانوا يودعون الخمور المعفاة من الضرائب داخل سراديب هذا الباب. لمزيد من المعلومات في هذا الشأن، انظر: **عنان**، محمد عبد الله (1997): دولة الإسلام في الأندلس، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

موطنهم الأصلي، وإنما جيء بهم من الأندلس. ولعل ما يؤكد ذلك في رأيهما أن هناك نقشاً فريداً على منبر مسجد سيدي أبي مدين يحمل اسم صانعه، وهو أصيل إقليم الجزيرة في الأندلس؛ وهناك أيضاً خبر يشير إلى أن المصراعين البرونزيين لباب المسجد نفسه قد صُنعا في الأندلس. ويرى جاكتون أن دراسات مقبلة للمعالم الأثرية في المغرب قد تعزز رأي السيدين مارسيه هذا أو ربما تنقضه[1].

وعلى مدى 80 صفحة من كتابهما (ص29-111)، يعرض الأخوان مارسيه لمحة عامة عن أسلوب العمارة وتصاميم المباني الأثرية والزخارف الفنية التي تناولاها في الكتاب، ويثريان ملاحظاتهما بجملة من المعلومات والمقارنات تساعد على تحديد أصلها وتطورها، مما يجعل كتابهما مرجعاً لكل المهتمين بدراسة الآثار الموريسكية، ويسد نقصاً كبيراً في المجال، خصوصاً وأن الرحالة والمؤرخ والرسام الفرنسي جيرو دي برانجيه[2]، كما

---

(1) **Jaqueton,** Gilbert: William Marçais et Georges Marçais. Les Monuments arabes de Tlemcen (Service des monuments historiques de l'Algérie), op. cit., pp.614-615.

(2) **جيرو دي برانجيه** Girault de Prangey (1804-1892) مؤرخ ورحالة ورسام فرنسي، وهو أيضا من أوائل المصورين في العالم. استثمر ثروته الطائلة ليتجول في بلاد البحر المتوسط والشرق الأدنى، على خطى الأديب الفرنسي شاتوبريان Chateaubriand =

ينبه الأخوان مارسيه إلى ذلك، قد أغفل تماماً دراسة المعالم الأثرية في مدينة تلمسان في كتابه "العمارة العربية في إسبانيا وصقلية وبلاد البربر".

وينبه الأخوان مارسيه إلى أن كتابهما يقوم دليلاً على أن دراسة معالم مدينة تلمسان الأثرية "قد تساعد من أكثر من وجه على إدراك طبيعة العمارة الأندلسية إدراكاً أفضل. فمعظم تلك المعالم تنفرد بأن لها تاريخاً معلوماً شبه مؤكد، ولم يطرأ عليها سوى القليل من التغيير. وفي حين أنه من الصعب جداً معرفة نصيب كل جيل من الإضافات التي لحقت الآثار الإسبانية عبر الحقب المتعاقبة، يمكن لكل مسجد من مساجد بلاد المغرب أن يكون نموذجاً لمرحلة من مراحل تطور الفن العربي، ومحطةً تاريخيةً من محطات تشذيبه أو تدهوره. فهي بالتالي بمنزلة وثائق أثرية بالدرجة الأولى، يمكن اعتمادها؛ لا لدراسة المعالم الأثرية

= ويدرس معالمها المعمارية. وقد ترك للعالم صورا فريدة لمواقع في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وتركيا، ولكن أيضا في تونس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين. والغريب أن أعماله لم تكتشف إلا مصادفة عام 1920 في أحد المخازن لتجد طريقها إلى الشهرة بعد 80 عاما من الإهمال. وقد حُفظ كثير من تلك الصور في عدد من المتاحف العالمية. وكتابه المشار إليه هنا هو:
Essai sur l'architecture des Mores en Espagne, en Sicile et en Barbarie, Paris, 1841.

في الأندلس فحسب، ولكن أيضاً لدراسة نظائرها في صقلية وتلك التي ستكشفها التنقيبات الجارية في المدن المغربية"[1].

والذي يطالع كتاب الأخوين عن مدينة تلمسان يلحظ أنهما كانا يفضلان هذه المدينة - وغيرها من المدن الأثرية المغاربية في الواقع - على مثيلاتها الأندلسية، وقد أعربا عن ذلك صراحة في كتابهما فقالا: "علينا أن نؤكد ذلك السحر والقيمة التي حافظت عليها المعالم الأثرية المغاربية بحكم بقائها على وضعها الأصلي وسط حضارة تماثل تلك التي شهدت ولادتها. لقد مرت قصور إشبيلية وغرناطة بعمليات ترميم بالغة جعلتها أكثر غنى وإن أفقدتها شيئاً من تجانسها، فصارت تبدو وكأنها مشاهد فخمة تثير الفضول لكن السياحة ابتذلتها وسلبتها شيئاً من سحرها الأصيل فجعلت من الصعب على المقيمين من حولها أن يدركوا حقيقتها. في المقابل، ظلت معظم مساجد تلمسان قائمة بين مشاهد الأزقّة العربية الضيقة التي تعجّ بجموع المتجولين فيها في جلابيبهم البيضاء"[2]. ويحذّر الأخوان مارسيه من محاولات بعض المستوطنين الفرنسيين طمس المعالم الحضارية القديمة في تلمسان وغيرها من مدن الجزائر وتجريدها من أجمل

(1) **Marçais**, Georges et William: Monuments arabes de Tlemcen, op. cit., p. 109.

(2) السابق. ص 110.

ما يجلب الزوار إليها، في مسعاهم لجعل تلك المدن شيئاً ما على شاكلة المدن الفرنسية التي اعتادوا مشاهدتها في الوطن الأم، ويؤكدان أن في هذا حساباً خاطئاً وممارسة لا تليق بالحضارة التي ينتمون إليها[1]. وكان الأخوان مارسيه بذلك يشجعان على تطوير الحركة السياحية في بلاد المغرب جنباً إلى جنب مع إبراز التراث الحضاري العربي الإسلامي وذلك لكبح جماح حركة تحديثية حتمية كانوا يخشون آثارها السلبية. ويعلق آلان مسعودي على هذا الجهد الذي بذله الأخوان في كتابهما لإبراز القيمة الحضارية التي تحظى بها معالم العمارة الإسلامية في تلمسان، فيرى في ذلك الجهد محاولة منهما لتقديم تلك المعالم الإسلامية على أنها باتت جزءاً من تراث الإمبراطورية الفرنسية، وأن التنويه بقيمة تلك المنشآت الدينية هو محاولة للدمج بين الصفة الإسلامية والصفة الفرنسية للجزائر، وجعْل الإسلام جزءاً من ثقافة الإمبراطورية الفرنسية[2].

(1) السابق. ص111.

(2) **Messaoudi,** Alain: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? op. cit., p. 171.

حول كتابه "تاريخ العرب في بلاد البربر بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر للميلاد"[1]

مثلما سبقت الإشارة، هذا الكتاب، في الأصل، رسالة أعدّها جورج مارسيه لنيل درجة الدكتوراه، ويعُدّها الباحثون من أعماله القيّمة؛ قال عنها زميله المستشرق روبير برونشفيغ[2] إنها تمثّل

(1) **Marçais,** Georges: Les Arabes en Berberie du XI^{e} au XIV siècle, Constantine, Paris, 1913.
وجميع المقتطفات الواردة هنا من ترجمتنا، ومُحال عليها في صفحاتها من هذا الكتاب.

(2) **روبير برونشفيغ** Robert Brunshvig (1901- 1990): مستشرق فرنسي، ولد في مدينة بوردو بفرنسا، وبدأ حياته التعليمية أستاذا في جامعة تونس، ثم انتقل عام 1932 للتدريس أستاذا للحضارة الإسلامية في جامعة الجزائر. وفي عام 1945، عيّن أستاذا للغة والأدب العربي في جامعة بوردو، ثم التحق بجامعة السوربون عام 1955 ليعمل مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية، ومديرا لتحرير مجلة "دراسات إسلامية" *Studia Islamica* العريقة. له كتب شهيرة ومشهود لها حول الإسلام والثقافة الإسلامية، منها كتابه القيّم حول التاريخ السياسي والأدبي والاجتماعي والديني لبلاد البربر الشرقية خلال حكم الدولة الحفصية La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du 15^{e} siècle.
للمزيد حول سيرته انظر:
Eisenbeth, M.: Pages Vecues. 1940-43 (1945) Encyclopedia.com.

"نقطة تحوّل في مجال الدراسات التاريخية لشمال إفريقيا لما فيها من عمق الطرح وحسن إلمام بالموضوع"[1]. وهو من المؤلفات النادرة التي تضمّها مكتبة جورج كامب كايزر the George Camp Keiser Library التابعة لمعهد الشرق الأوسط بجامعة واشنطن، والتي تشكّل جزءاً من المجموعات الخاصة التي يحتفظ بها مركز البحوث في هذه الجامعة. وقد قدّم فيها صاحبها دراسة متينة متأنية للحركة السكانية وأثرها الفاعل في بناء إفريقية وتطوّرها.

يقول جورج مارسيه في مقدمة الكتاب مبيّناً الصعوبات التي تعترض أيّ باحث يُقبل على تقديم دراسة لتاريخ العرب في بلاد البربر، كفيلة بأن تشدّ القارئ لمطالعتها: "لن يجد القارئ الفرنسي في تاريخ بلاد البربر خلال العصور الوسطى تلك المتعة التي يجدها عادة لما يقرأ في تاريخ البلاد الأوروبية. فهو يقتحم هنا بالفعل أرضا غريبة لا يكفي جمالها وسحرها الغريب ليشدّه إلى القراءة، في حين أن هناك عوامل كثيرة تتضافر فيما بينها لتنفّره من ذلك... والذي ينظر في مجمل هذا التاريخ سيجد أنه يفتقر افتقاراً شبه كامل للوحدة... فبلاد البربر لا يبدو أنها قادرة

(1) **Brunschvig**, Robert: "Hommage à Georges Marçais", in: *Arabica*, vol. 11, Issue 1, 1964.

على التطور بإمكاناتها الذاتية، ويبدو أنها بحاجة دوماً إلى أن تكون تابعة؛ وكأنّ في ذلك نوعاً من الحتمية القاهرة التي تجعلها لا تكون إلّا بلاداً تابعة" (ص.1).

ويمضي مارسيه في بيان طبيعة بلاد البربر فيرى أنها كانت على مدى التاريخ "مستودعاً لقوى كثيرة غير متجانسة، وهي لذلك بحاجة إلى تلقّي المؤثرات الفاعلة فيها من الخارج، من فينيقيا أو روما، أو من المشرق الإسلامي، أو من إسبانيا. وكم يعجب المرء أمام تلك القوة التي تصدر عنها وهي تردّ الفعل تجاه ذلك التطور المفروض عليها من الخارج..." (ص.1). ويضيف مارسيه أن بلاد البربر كانت دوماً عرضة للاضطرابات البشرية، لكنها اضطرابات عقيمة بسبب أولئك "الأمراء الفاشلين" الذين تتابعوا على حكمها خلال العصور الوسطى والذين كانوا يمضون مطلعَ كل ربيع في غزوات نهْب وسلْب لا تجعل منهم سوى "أمراء فاشلين". إلا أنّ الأقدار تمنّ عليها من حين لآخر "بسلطان حازم يتميز من بقية الفاشلين فيشعّ على البلاد ببريق عابر تحدوه عقيدة متوهّجة، فيحرّك الحشود من حوله ليكتسح بها شمال إفريقيا وينطلق بها حتى إلى ربوع أوروبا" (ص.2).

ويتوقف مارسيه عند المصادر المواتية لدراسة تاريخ العرب في بلاد البربر فيلحظ أنها قليلة، ويقول: "هناك قليل جداً من

الأعمال والنقوش الكتابية والقطع النقدية التي لا يفيد منها الباحثون إلا قليلاً والتي لن نجد فيها ما يخدم بحثاً كهذا؛ وهناك القليل جداً من المعلومات؛ والوحيدة المتاحة محفوظة ضمن أرشيف البلاد المسيحية لكنها لا تتصل بالتاريخ الداخلي للبلاد التي نروم دراستها هنا. وهناك أخبار ونصوص وصفية حرّرها بعض الجغرافيين، معظمها مطبوع لحسن الحظ، وأهمها مترجم إلى بعض اللغات الأوروبية، لكنها لا تخلو من أخطاء خطيرة لا يمكن تداركها أحياناً" (ص.2).

ويرى مارسيه بمنهجه الاستشراقي الصارم "أن افتقار الكتّاب الأقدمين إلى الفكر النقدي هو بطبيعة الحال عيبهم الأكبر. فهم يعوّلون، فيما يخصّ الفترات التاريخية التي سبقتهم، على مصادر لا يذكرون أصحابها في الغالب. وبالتالي تصبح التلخيصات التي يقدمونها والسرقات التي يوردونها من تلك المصادر محدودة الفائدة وقيمتها ثانوية. وأما الأحداث القريبة من عصرهم فهم لا يعوّلون في رصدها إلا نادراً- فيما يبدو- على الوثائق الرسمية؛ أو ينقلون في شأنها أخباراً شفهية أو معلومات عن شهود عيان. كما أن النصوص التي يسوقونها من دون أي محاولة للنقد غالباً ما يُعْوزها الصدق. ولهذا، فإن مؤرّخينا هم في معظمهم بالأحرى من كتّاب التاريخ الرسمي، يستجْدون بكتاباتهم عطاء الأمير

فيكتبون عن حياته وعن أمجاد أسلافه السابقين. ولهذا، فالأرقام القليلة التي يسوقونها قد تكون مبالَغاً فيها. ولأن خبرتهم بالتحليل النفسي متواضعة ومهارتهم في التعامل مع الأرقام تُعْوزها الدقة، فهم يجهلون كيف يميزون ما يعود إلى قوة شخصية الرجل الفاعل في حدث من الأحداث؛ فالأمير الذي هم في خدمته يحمل دائماً صورة البطل المسلم المنتصر، إلا فيما ندر؛ وإذا كانت له هزائم فمردّها إلى القدر وسوء الطالع. ومؤرخونا كذلك رواة لا يتقنون فن السرد، ولهذا فهم يسوقون عن الأحداث، كبيرها وصغيرها، نصوصاً بالغة التفاصيل يصعب التعويل عليها" لكتابة تاريخ العرب في بلاد البربر. ويرى مارسيه أن هذه العيوب التي رصدها في نصوص التاريخ الرسمي هي ذاتها موجودة في كتابات الجغرافيين الذين كتبوا عن المنطقة (ص.3-4).

في المقابل، يرى مارسيه أن أفضل المصادر التي أفاد منها لإنجاز مشروعه هذا عن تاريخ العرب في بلاد البربر، هو ابن خلدون وكتابه "العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر". فليس هناك في نظره عالم "لديه معرفة بطبيعة هؤلاء [العرب] المهاجرين الرحّل تضاهي معرفة مؤرخ فيلسوف كابن خلدون، وواحدٍ من أكثر المفكرين الذين عرفهم العالم

الإسلامي أصالة وقوة. فقد استثار هؤلاء البدو الرحّل فيه روحَ عالم الاجتماع بحكم كونهم يعيشون على الرحلة، ولكوْن هذا النمط من الحياة في نظره مرحلة ضرورية في تطور الأجناس البشرية؛ كما أنهم نجحوا في كسب احترام هذا السيد العظيم بما جُبلوا عليه من عزة نفس وترفّع عن الدنايا؛ ثم إنهم استثاروا في نفس الأديب لديه بعض التعاطف، رغم جفاء طبعهم، لأنهم كانوا عرَباً، وكانوا يحتفظون في بلاد المغرب ببعض ما يذكّر بتراثهم القديم وشيء من رونق اللغة الكلاسيكية الجميلة" (ص.4-5). ويلحظ مارسيه، بحسّه الاستشراقي المرهف، أن ابن خلدون "كان الوحيد، من بين جميع المؤرخين الغربيين، الذي استعلم عن أصول هؤلاء العرب وأنسابهم، وأنصت بكل لطف لمغنّيهم، وراجع ما قال عنهم النسّابون. كما أنه عايش شيوخهم عن كثب، سواء في بلاطات السلاطين الذين عمل في خدمتهم أو في مرابع هؤلاء الرحّل وخيامهم. ولا غرابة، فقد كتب ابن خلدون جزءاً من كتاب العِبَر بين جدران القصر الذي كان يملكه واحد من سلاطينهم في فِرِندة" (ص.5).

ويرى مارسيه أنّ "حياة المغامرة والترحال التي عاشها ابن خلدون أتاحت له أن يكون أفضل الذين كتبوا عن الظروف السياسية العامّة في عصره، أي النصف الثاني من القرن الرابع

عشر. فقد تنقّل تباعاً من فاس إلى تلمسان، ثم من تلمسان إلى تونس، وخَبِر صحبة الأمراء مثلما خَبِر سخطهم، وتقلّب بين الوظائف، فكان كاتب دولة وسفيراً ورئيساً للوزراء، وأمسك بزمام الممالك وأدرك قوتها مثلما خَبِر ضعفها. وكان يقرأ كثيراً خلال الفُسَح التي كانت تتاح له بعيداً عن الحياة العامة: فهو ينصّ عامّة على مصادره ويوظّفها بأسلوب ناقد قلّما نرى مثله لدى معاصريه" (ص.5).

لكنَّ لدى مارسيه على ابن خلدون بعض المآخذ، وتتمثل في "نزعته هو أيضاً إلى المبالغة في إطراء السلاطين الذين ينعم بحظوتهم، وتسرّعه شيئاً ما في الكتابة، وتقديمه للحدث الواحد روايات ينقصها الانسجام، أحياناً؛ وأيضاً - وخصوصاً - ثقته العمياء بالمبادئ العامّة التي وضعها لنفسه وتجاهُله المنحاز لأي معلومات تنقضها" (ص.5).

ويتوقف مارسيه عند واحد من مصادر ابن خلدون يتصل ببلاد لم يعرفها هو نفسه جيّداً، وهو "رحلة التجاني"[1]، ويرى أن هذه الرحلة تفيد القارئ "بمعلومات دقيقة عن أوضاع القبائل العربية، وتُقدّم صورة كاملة تماماً عن المناطق الساحلية الممتدة

(1) **"رحلة التجاني"** كتاب ألفه أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، في القرن الثامن الهجري، ويعدّ أحد مصادر تاريخ تونس.

من تونس حتى طرابلس. فقد سافر التجاني عبر تلك المناطق في صحبة أحد الأمراء الحفصيين، في مطلع القرن الرابع عشر، واستعلم عنها في طريقه، وقدّم في شأنها معلومات دقيقة تساعد على استكمال ما نقص لدى ابن خلدون في كتابه" (ص.5). كما وجد مارسيه في "رحلة التجاني" نصوصاً "من يومياته دقيقة ومنظمة إلى حدّ بعيد، فضلاً عمّا فيها من معلومات ووثائق غنية ومتنوعة" (ص.15). وأما ابن بطوطة، ذلك الرحالة الشهير من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، فإنه - وإن لم يشاهد خلال رحلته كثيراً من بلاد البربر- قد زار واحة "تُوات" البربرية، وقدّم لنا عنها لحسن الحظ - كما يقول مارسيه - صورة ممتازة عن طبيعة الحياة في واحات [بلاد البربر]" (ص.15).

وهناك مصادر أخرى تناولت تاريخ العرب في بلاد البربر قبل القرن السادس عشر، ويذكر مارسيه منها أعمالاً فردية عن قبائل المنطقة أنجزها كتّاب محلّيّون أو ضبّاط أو مترجمون وإداريون فرنسيون كانوا يعملون في مكاتب الشؤون العربية في الملحقيات الفرنسية. ويرى مارسيه أنه "لا يمكن للباحث أن يجد في مثل هذه المصادر ما يفيد، لأنها قامت على معلومات شفوية، والتواريخ فيها غير دقيقة إلى حدّ بعيد". ومن المصادر كذلك كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير المتوفىَّ سنة 630هـ/1233م.

ويرى مارسيه أن ابن الأثير، وإن كان مشرقياً وعاش في مرحلة متأخرة بقرن ونصف القرن عن الأحداث التي هو بصدد الكتابة عنها، فإنه "على علم جيّد بأحوال بلاد البربر، ويتحدث عن أخبارهم بأسلوب واضح ليس فيه مبالغات. لكنه للأسف لا يذكر المصادر التي تلقّى عنها تلك الأخبار" (ص.7).

ويرى مارسيه أنه لا يمكن لباحث مهتم بتاريخ دخول العرب إلى بلاد البربر أن يغفل "تغريبة بني هلال"، تلك الملحمة الشعرية التي خلّدت ذكراهم في الأوساط الشعبية العربية. ذلك أنّ الأحداث التي هو بصدد التأريخ لها في رسالته قد "اقترنت بتراث أدبي ملحميّ كامل لا يزال بحاجة إلى دراسة في رأيه". ويتتبع مارسيه بمنهجه الاستشراقي المميّز ما تم تحقيقه من نصوص هذه الملحمة، سواء في بيروت أو في مطبعة بولاق بمصر، والنسخ المخطوطة التي حُفظت منها في عدد من المكتبات، ومنها مكتبة برلين. ويرى مارسيه أن القدر الأكبر من أشعار هذه الملحمة لا يزال غير مطبوع، وهو محفوظ في ذاكرة الرواة والحَكَواتية في مقاهي القاهرة وبلاد النوبة وكردفان، وتختلط تلك الأشعار بكثير من أساطير البربر في جنوب غربيّ تونس، وفي بلاد القبائل، ومنطقة تيارت، ومعسكر داخل الجزائر (ص.9).

وما من شك، في نظر مارسيه، في أنّ الروايات المتداولة عن تغريبة بني هلال "روايات قديمة، وكانت معروفة في زمن ابن خلدون. وكان المثقفون ينظرون بعين الازدراء إلى هذا النتاج الذي أبدعته القريحة الشعبية؛ وكان شيوخ العرب لا يرون لها أي قيمة. لكن صاحب المقدّمة بمنهجه الانتقائي المستنير كان يستمتع بالاستماع إليها، ولم يكن يرى بأساً في أن يخصص لها مكاناً في عمله رغم جدّية ذلك العمل، وأن يسوق منها مقتطفات ضافية، وأن يتناول منها بالتحليل مقاطع تتصل برحلة العرب إلى بلاد البربر" (ص.9).

ومع ذلك، فقد وظّف مارسيه تلك النصوص"توظيفاً ناقداً حذراً" في كتابه؛ وكان يرى أنها "وثائق من الطراز الأول لدراسة لغة أولئك البدو الرحّل الذين استعربت بلاد المغرب على أيديهم؛ وفي تلك النصوص أيضاً معلومات نفيسة عن طبيعة القبائل الغازية وثقافتها ومُثُلها التي كانت تجمع في الآن نفسه بين الفروسية والهمجية، بين الكرم والقساوة؛ ولذلك، فإنها تساعد على فهم طبيعة حياة الرحلة التي كانت تعيشها تلك القبائل، تماماً مثل أشعار العصر الجاهلي التي هي امتداد لها. وفي تلك النصوص أيضاً شواهد ساذجة على الأثر الذي تركه قدوم هؤلاء الأغراب في نفوس أهالي بلاد البربر، والإحساس الذي شعر به هؤلاء الأغراب أنفسهم وهم يكتشفون هذا العالم

الجديد...". ومع ذلك كله، فإن نصوص تغريبة بني هلال كما يراها مارسيه "لا تفيد في شيء للتثبت من نسق تسلسل الأحداث. وما تقتبسه من التاريخ يقتصر عموماً على أسماء بعض الشخصيات..." (ص.9-10).

ويعتبر مارسيه أن مشروعه في كتابه سينصبّ على "دراسة حَدَث إثنوغرافي عظيم، يماثل أحداثاً أخرى كثيرة عاشتها بلاد البربر. وقد جاء ذلك الحدث على مراحل متتالية كان آخرها وأكثرها شهرة تلك (التغريبة الجماعية) التي هي- في الحقيقة- اجتياح مهاجرين قدموا من الشرق إلى بلاد البربر، فلم يُدخلوا عليها- في الحقيقة- شيئاً جديداً تماماً، وإنما أسهموا في ترسيخ عامل الرحلة في البلاد، وعزّزوا فيها حضور العنصر الساميّ. وإذا لم يكن هذا الحدث عنواناً لأزمة حاسمة، فإنه علامة بالغة الحدّة على حالة من عدم الارتياح بقيت آثارها ممتدة حتى اليوم" (ص.17). ويتساءل مارسيه إن كانت تلك الآثار ستستمر إلى الأبد، ويجيب بأن "هناك علامات واضحة شيئاً ما على أنها أخذت تتضاءل يوماً بعد يوم. ذلك أن التواصل المتنامي بين شعوب أوروبا والأجناس المختلطة التي تعمر [شمال] إفريقيا سيفرض عليها مساراً جديداً. وإن حياتها الاقتصادية التقليدية مهدّدة بما تلقاه من منافسة لا هوادة فيها نتيجة التوسع الاستعماري؛ فحياة

الرحلة بدأت تتراجع، وعلى أصحابها أن يتطوّروا وإلّا فمصيرهم إلى زوال. كما أن أُطُرها الاجتماعية القديمة قد انفرطت فلا أمل في عودتها؛ وإن ظروف الحياة المادّية المتجدّدة ستستكمل ما قامت به إدارة [الاستعمار]. ولم يبق صامداً أمام هذا المدّ العالميّ سوى نظام الحياة السياسية القائم في المغرب [الأقصى]. لكن هذا الوضع المتخلف سيتغير قريباً بدوره، بفعل من فرنسا، وسيولد من جديد في شكل مغاير. وربما لن يبقى من تلك الإمبراطورية الشريفية القديمة ذات الشبه الكبير بإمبراطورية السلاطين سوى ذكرى بعيدة، خلال السنوات القليلة القادمة" (ص.17-18).

حول كتابه "بلاد البربر الإسلامية والمشرق خلال العصور الوسطى"[1]

يمكن أن نعدّ هذا العمل امتداداً للكتاب الذي توقفنا عنده في المبحث السابق. ويقول عنه روبير برونشفيغ إنه "عمل لا يقلّ

(1) **Marçais**, Georges (1946): La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge, Paris, Aubier, 1946.
وقد صدر الكتاب باللغة العربية تحت عنوان "تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامي منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصور الوسطى" ترجمة محمود عبد الصبور هيكل. راجعه واستخرج نصوصه مصطفى أبو ضيف أحمد. منشأة المعارف. الإسكندرية 1991. وجميع المقتطفات الواردة هنا - مع تصويبات طفيفة - محال عليها في صفحاتها من هذه الترجمة.

رصانة ومتانة عن رسالة مارسيه (تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر)، ويتميز بأسلوبه الرائع، إذ توّج به صاحبه أربعين سنة من الخبرة والشغف بتاريخ القرون الوسطى والغرب الإسلامي... وكان نموذجاً للكتابة العلمية الدقيقة والفكر الثاقب، بما اجتمع فيه من الملاحظات البارعة"[1].

وقد اختار أن يتناول فيه الموضوع نفسه من جديد بعد حوالي ثلاثين عاماً، لكن من زاوية مغايرة، تنطلق من الغزو الهلالي الذي ترك آثاره في جميع أنحاء بلاد المغرب، والذي رسم لنا عنه ابن خلدون صورة ضافية، لعلّ أبرز مظاهرها الدمارُ الذي خلّفه الهلاليون في مدينة القيروان. ومن مظاهر ذلك الغزو أيضاً الفوضى التي وقعت فيها إفريقية بأكملها، وتعرُّض جميع مدنها الساحلية لهجمات القراصنة، وما صاحبها من غزو النورمان لصقلية. وقد نتج من ذلك قيام وضع جديد تجسّد في القطيعة بين بلاد البربر والمشرق الإسلامي، وخصوصاً مصر. وبدءاً من القرن الحادي عشر، توالت على بلاد المغرب سلالات من الأسر الحاكمة، من المرابطين، ثم الموحدين، ثم الأتراك العثمانيين في نهاية العصور الوسطى. وفي هذا السياق، يقابل مارسيه بين الأوضاع التي خلّفتها هذه التطورات في كل من تونس والمغرب.

(1) **Brunschvig**, Robert: "Hommage à Georges Marçais", in: *Arabica*, vol. 11, Issue 1, 1964.

فكلا البلدين يحظيان بسواحل ممتدة. لكن تونس بقيت في نظره منفتحة على البلاد المطلّة على البحر المتوسط وعلى المشرق عامة، في حين ظل المغرب، بساحله الأطلسي الممتدّ، منفتحا على فراغ المحيط، وبقي كذلك حتى العصر الحديث. كما ترك الغزو المسيحي لإسبانيا فراغاً فكرياً قاحلاً في المغرب الذي ظل كذلك بعيداً عن أي تأثير عثماني.

يرى جورج مارسيه أن "دخول العرب الرحّل إلى بلاد البربر في حوالي عام 1050م/441هـ، وهو ما يسمى بالغزو الهلالي، قد شكّل تاريخ تلك البلاد خلال القرون الثمانية التي تفصل بين الفتح العربي... والاستقرار التركي..."، وإن "نتائج ذلك الغزو الهلالي سوف تظهر في جميع المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والفكرية، ولن تنجو منطقة أو شعب في شمال إفريقيا من نتائجه... وقد ترك أثره كذلك في أجزاء العالم الإسلامي التي تجاور بلاد البربر. فالغزاة العرب خرجوا من مصر وانتقل بعضهم أو نسْلهم إلى الأندلس، كما تأثرت البلاد غير الإسلامية المحيطة، وخاصة إسبانيا المسيحية وصقلية، بنتائج دخولهم إلى مسرح الأحداث...".

ويضيف مارسيه أن أحداث القرن الحادي عشر "قد أثّرت في الواقع في مصير العالم الإسلامي، كما أثّرت في تطوره

الداخلي وفي علاقاته مع النصرانية... وإن نظرة بيانية للأحداث التي تزامنت في الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي، بل في المجال المسيحي كذلك، تسمح لنا بوضع تلك الأحداث... في إطارها الزمني، وإبراز الروابط... التي تساعد على فهمها بطريقة أفضل" (ص.5-6).

ويرى جورج مارسيه أنه "إذا كانت هناك - كما يقال عن تحولات التاريخ - عصور تتغير فيها ظروف حياة الدول والشعوب تغيراً عميقاً نتيجة لظهور أبطال جدد على مسرح الأحداث ولتداخل عناصر جديدة، فالقرن الحادي عشر الميلادي (5 هـ) يعدّ واحداً من هذه التحولات بالنسبة إلى العالم الإسلامي. فالأحداث التي شهدها أثّرت في المشرق والمغرب، من بلاد فارس إلى إسبانيا، والعالم المسيحي الذي كان له نصيب ملحوظ في هذه الانقلابات تأثر بها أيضاً، ولكن في وقت لاحق" (ص.7).

"ففي المشرق، أدّى دخول الأتراك إلى سلوك الإسلام مسلكاً جديداً بدأت مراحله الأولى قبل نهاية القرن الثاني عشر. فقد قوي المذهب السنّيّ وانطوى على نفسه مُقاطِعاً مغريات الفكر الوثني، محصِّناً نفسه ضدّ البدع والهرطقات، متحفزاً ضدّ العالم المسيحي. فتجدد الصراع بين العالم المسيحي والعالم

الإسلامي، وكان ردّ الفعل مباشراً من جانب الغرب، فقامت الحروب الصليبية... وتلك هي مميزات التحولات التاريخية في المشرق (قارة آسيا)" (ص.9).

"أما الطرف الآخر (الغربي) للبحر المتوسط الإسلامي، فقد شهد فيه القرن الحادي عشر (5 هـ) أيضاً ظهور أحداث ذات أهمية كبرى، ولن تخلو من تشابه مع تلك التي ذكرناها في المشرق... ففي عام 1030م (421 هـ)، اختفى آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس، أو [بالأحرى] لم تعُدْ الخلافة [الأموية] في السنوات الأخيرة من القرن العاشر الميلادي (4 هـ) إلا وهْماً، أو خيالاً بدلاً من واقع! فقد كان أواخر الأمويين في قرطبة لعبة بين أيدي رؤساء الديوان، مثلما كان الحال مع العباسيين في بغداد، وذلك ابتداء من وصاية ابن أبي عامر وابنيْه الاثنين من بعده. ومع ذلك، فالعامريون كانوا يُبقون على الحظوة والقوة الظاهرية حول من كان يحمل لقب أمير المؤمنين إلى أن انهار كلّ شيء على أيديهم. وفتح سقوط هذه الخلافة في الأندلس عهداً من عدم الوفاق استمر حتى عام 1086م (479 هـ). ويتميز هذا العصر بخصائص جديدة في جميع المجالات:

- فالوحدة الصعبة التي حققها عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر الميلادي (4 هـ) تحولت إلى انقسام في السلطة السياسية؛

- وحلّت محل السلطة الدنيوية للخلفاء والمكانة الدينية المعترَف بها لهم سلطات محدودة لملوك الطوائف ونوع من التوازن بينهم سيزول في عهد خلفائهم؛
- وأصبحت الثقافة والفنون في قصور ملوك الطوائف أكثر علمانية، فازدهر الشعر في إشبيلية وغرناطة وبلنسية، إذ تناول حياة المتعة وأوهامها، والحدائق والحب الدنيوي، ولا تجد فيه أي إحساس ديني أو روح بطولية. ويبدو أن مسلمي إسبانيا فقدوا قوة مقاومتهم وحيويتهم.

في هذا العهد - عهد ملوك الطوائف - بدأت السلطة تعود بتصميم متواصل إلى أيدي المسيحيين الذين استفادوا من هذا الوضع المتدهور..." (ص.9-10)

ويواصل مارسيه تحليله لهذه التطورات فيقول: "وهكذا نلاحظ أننا أمام وضع يعاكس الوضع المزامن له في آسيا، فالنصرانية هنا في وضع هجومي، وردّ الفعل سيكون من الإسلام الإفريقي. ومثلما دعا الإمبراطور البيزنطي أمراء الغرب المسيحيين لمقاومة التهديد الإسلامي، محذّراً الغرب الأوروبي من فقدان عرش الإمبراطورية البيزنطية، كذلك في إسبانيا، أرسل سلطان إشبيلية صرخة استغاثة مماثلة للمرابطين وحصل على مساعدتهم، وكان المقابل ضياع إمارته.

هذه الحرب المقدسة المضادّة شنّها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين، الذي انتصر في الزلّاقة عام 1086م (479هـ)، وكما في المشرق، فسوف تستمرّ الحرب التي بدأت في نهاية القرن الحادي عشر لمدة 200 عام، وستزيد عليها في الأندلس 50 عاماً...". (ص.10-11).

ويرى مارسيه أن المرابطين "وهُم أصلاً بدو رُحّل، سنّيّون شديدو التديّن، وقد أصبحوا الآن أبطال العقيدة المهدَّدة... وبفضلهم استطاع الإسلام تعزيز العقيدة والدفاع عن نفسه والوقوف أمام الأعداء في الخارج والداخل. لقد قاوموا التسيّب في العادات وإغراءات الثقافة الدنيوية في شبه الجزيرة الإيبيرية التي قدموا لإنقاذها. وبعد ستين عاماً تقريباً، استطاعت الأندلس أن تليّن من صلابتهم وتهزّ قواهم نصف الهمجية، فاضطروا لترك الساحة لخلفائهم الموحّدين، ثم للمرينيّين من بعدهم" (ص.11).

وهكذا أصبح "الجهاد المقدّس الذي نادى به المرابطون طلباً للنصر سيحدّد من الآن فصاعداً الدور التاريخي للمغرب، وستدوم هذه الحرب حتى استعادة المسيحيين شبه الجزيرة الإيبيرية بأكملها وما يقابلها من السواحل المغربية، لأن غزوات المسيحيين لسواحل بلاد البربر (شمال إفريقيا) وعمليات القرصنة جعلت تلك الحرب تطول حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادي" (ص.11).

ويواصل مارسيه تحليله للتطورات التاريخية التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي في تلك الفترة فيقول: "إن تدخل المرابطين في إسبانيا في نهاية القرن الحادي عشر، هو الذي وضع المغرب الإسلامي في مهبّ هذه الأقدار التاريخية الجديدة. وهناك أحداث مماثلة لا تقلّ أهمية عن هذه كانت تدور في نقطة أخرى من العالم الإسلامي في الوقت نفسه الذي دخل فيه الأتراك بغداد، وخرج فيه المرابطون من الصحراء ليتجهوا شمالاً". وهذه الأحداث كالآتي:

- "انفصال بلاد البربر الشرقية (الصنهاجيين) عن الخلافة الفاطمية في القاهرة؛
- غزو العرب الرحّل بلاد المغرب نتيجة هذا الانفصال؛
- احتياج هؤلاء العرب الرحّل [يقصد بني هلال] للبلاد التي غزوها" (ص.11-12).

ويرى مارسيه أن الغزو الهلالي كان كارثة على بلاد المغرب، وأن الحياة في شمال إفريقيا قد تأثرت على الدوام بهذه الكارثة، وأن القرن الحادي عشر قد "دمغ هذا البلاد - أكثر من أي مكان آخر- بانقطاع مع الماضي وتحوّل للتاريخ في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية، وفي المسائل الدينية التي تظهر بدون شك في المرتبة الأولى في آسيا كما في إسبانيا... فعودة

المذهب السنّيّ لإفريقية - المناهض للشيعة الفاطميين - كان سبب الانفصال بين القيروان والقاهرة. ومن الآن فصاعداً سيسود المذهب السنّيّ كل بلاد البربر التي دفعت ثمن هذا التحرر غالياً. وبالرغم من المحن، فقد عزّز الإسلام أوضاعه ليصبح نضالياً، ويثير بالتالي ردود فعل المسيحية. وبعد الانهيار الناتج عن الغزو الهلالـي، أعاد أمراء صنهاجة تنظيم سياستهم فحوّلوا نشاطهم من الداخل نحو البحر، أي نحو البلاد المسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، كنوع من التعويض عن الكوارث التي لحقتهم في الداخل، وقبل كلّ ذلك استجابة لاستغاثة مسلمي صقلية للحفاظ على كيانهم ضدّ تهديد النورمان المسيحيين..." (ص.11-12)

ويلاحظ مارسيه أن نشاط البربر البحري هذا "الذي ازداد في القرن الحادي عشر ليس إلا امتداداً للصراع بين الإسلام والنصرانية. لذلك حدثت تطورات ثلاثة في القرن نفسه، وبالتحديد خلال الخمسين عاماً الأخيرة منه، كانت مستقلة بعضها عن بعض ولكنها غيّرت بعمق الحياة الداخلية في ثلاثة أقاليم متباعدة من العالم الإسلامي... وغيّرت الحياة الداخلية للدول والشعوب وعلاقاتهـم الخارجيـة بالعالم غير الإسلامي المحيط بهم..." (ص.13)

"وليست هذه التطورات الثلاثة المتوازية نتيجة إفلاس... خليفة واحد؛ بل إفلاس ثلاثة خلفاء كان يتقاسمون العالم الإسلامي آنذاك، وهم الخليفة العباسي في بغداد، والأموي في قرطبة، والفاطمي في القاهرة. إذ أدّى تنافُسهم إلى تأكيد ضعف عضال في العالم الإسلامي. فوصاية الأتراك على العباسيين، وتدهور الأمويين، وانفصال الأتباع البربر عن الفاطميين، ما هي إلا دلالات خطيرة على ظهور أزمة نتج عنها وضع جديد قضى على ذكرى الوحدة السياسية السابقة، ولكنه حفز، في الوقت نفسه- الدعوة إلى الوحدة الروحية النسبية"؛ ونتج عن ذلك "انتصار المذهب السنّيّ" وتجسّد هذا الانتصار في "نوع من الإصلاح الإسلاميّ المضادّ... كردّ فعل تجاه البدع (الغريبة عن السنّة) والثقافة الوثنية..." (ص.13).

"إن تطوّر الأقاليم الإسلامية الثلاثة في اتجاه واحد مصادفة ليس من السهل شرحها. فالمجتمعات التي تثيرها أو تتّحد صدفة لإثارتها، هذه المجتمعات لها أسلوب الحياة نفسه.

وهذه المجتمعات في آسيا، كما في إفريقية، هي عشائر من الرعاة الرحّل والمحاربين، ينتمون إلى شعوب ثلاثة من أجناس مختلفة: أتراك، وعرب، وبربر. وهذه هي العوامل التي اختارها القدر التاريخي، في وقت يبدو مصادفة، فالقرن الحادي عشر هو

ميعادهم، والساعة التاريخية كانت للبدو الرحّل. إنهم قوة في خدمة عقيدة، وتدخلت هذه القوة في عالم أقل نضالية منهم. فمهمة الأتراك والمرابطين هي إصلاح السنّة؛ وأما الهلاليون فلن يكونوا إلا أداة عمياء للبدع، مما جعل العرب الأصليين والعالم الإسلامي يأسف لتدخلهم لأنهم هدموا ولم يصلحوا شيئاً. ولكن الوضع ليس كذلك بالنسبة إلى الأتراك والبربر الصحراويين، فدورهم في ازدهار الحضارة وعظمتهم الحربية منحتهم مكانة مشرّفة في تاريخ البلاد الإسلامية..." (ص.14).

حول كتابه: "الوجيز في فن العمارة الإسلامي: تونس، الجزائر، المغرب، إسبانيا، وصقلية"[1]

نُشر هذا الكتاب في طبعة أولى بين عامي 1926-1927 في مجلدين و967 صفحة، وضم 506 رسوم. ثم أعيد نشره في طبعة جديدة منقحة، في باريس عام 1955، تحت عنوان "العمارة الإسلامية في بلاد المغرب"[2]. قال عنه المستشرق الفرنسي روبير برونشفيغ "ربما يتفوق هذا العمل العظيم على غيره من

(1) **Marçais,** Georges: Manuel d'art musulman. L'Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile. Paris, éditions Auguste Picard, 1926-1927. 2 vol.

(2) **Marçais,** Georges; L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, 1955.

أعمال هذا المؤلف، وإن كان لا يقلل من شأنها بأي حال. فقد درس فيه أعمال الفن الإسلامي الكبرى من دون أن يغفل ما كان منها ثانوياً أو أقل أهمية؛ كما درس فيه التحف الفخارية والزجاجية والأقمشة والزرابي والثياب والمجوهرات والمنحوتات والمنمنمات والأغلفة الجلدية وغيرها دراسة فاحصة شملت فترات زمنية ومناطق إسلامية مختلفة عديدة. وكان العديد من القطع التي درسها من مقتنيات متحف الآثار القديمة والفن الإسلامي، الذي كان يتولّى الإشراف عليه"[1].

وكتب المؤرخ الفرنسي جيلبير جاكتون G. Jacqueton (1864-1935) عن هذا الكتاب فقال: "لعل السيد جورج مارسيه أفضل الذين يمكنهم الحديث عن الفن الإسلامي في بلاد المغرب... وقد ظل هذا الموضوع... شغله الشاغل، إذ نشر حوله عدداً كبيراً من البحوث والمقالات"[2]. وقد قدّم فيه مارسيه دراسة تحليلية لتاريخ الفن المعماري وزخرفة المباني الأثرية

(1) **Brunschvig**, Robert: "Hommage à Georges Marçais", in: *Arabica*, vol. 11, Issue 1, 1964.

(2) **Jaqueton**, Gilbert: Georges Marcais, Manuel d'art musulman… (compte rendu), *Bibliothèque de l'École des chartes* , Année 1928, 89, pp. 123-125;
www.persee.fr/doc/bec_0373_6237_1928_num_89_1_460508_t1_0123_0000_001,

الإسلامية في شمال إفريقيا وإسبانيا وصقلية الإسلامية، وتجلّت في الكتاب موهبة الرسام البارع والفنان المرهف والمؤرخ المقتدر التي اجتمعت لديه. وكان التنويه بجمال الفنون المغاربية يسير لديه وفق تصوّر جديد بدأ الإسلام والعروبة يتخذان فيه موقعاً متأخراً شيئاً فشيئاً لصالح الهوية البربرية[1].

شمل المجلد الأول من هذا الكتاب الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر؛ وتناول فيه الممالك العربية في القرن التاسع؛ والدولة الفاطمية؛ وصقلية الإسلامية والنورمندية؛ ثم الخلافة الإسلامية في قرطبة؛ والممالك العربية في إسبانيا والممالك الإسبانية البربرية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. وأما المجلد الثاني، فقد شمل المرحلة من القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر، وتناول فيه دولة الموحدين بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر؛ ثم إسبانيا الموديخار mudejar؛ فالمغرب في عهد الدولة الشريفية؛ ثم الجزائر خلال الحكم العثماني؛ فتونس خلال الحكميْن الحفصي والعثماني. وبهذا العمل، وضع جورج مارسيه الفن الإسلامي في بلاد المغرب في إطاره التاريخي الصحيح.

---

(1) أشار إلى ذلك ألان مسعودي ضمن مقاله:
Messaoudi, Alain: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? Op. cit., p. 174.

مهّد الكاتب لكل فصل من فصول الكتاب التسعة بلمحة تاريخية وألحق به خاتمة وقائمة مستفيضة بالمصادر والمراجع. وقد علّق جاكتون على هذا المنهج الذي اعتمده المؤلف فقال: "لا يمكننا إلا أن نشيد بالمعلومات التاريخية التي تضمنتها مقدمات فصول الكتاب لما فيها من فائدة لكل من يريد معرفة شيء عن تاريخ بلاد البربر وإسبانيا الإسلامية؛ كما أن تلك المعلومات في غاية الأهمية لمن يريد أن يضع الأعمال الفنية التي استعرضها الكتاب في إطارها التاريخي المناسب. وأما النتائج التي خلص إليها المؤلف، فهي بمثابة خلاصات تأليفية ممتازة وُفّق فيها إلى جمع المعارف الضرورية على نحو منهجي منظم"[1].

سخّر جورج مارسيه أكثر من نصف الكتاب لوصف الزخارف التي تحلّت بها المعالم الأثرية التي وقف عندها. وأما جانبا البناء والتخطيط فلم يورد مارسيه في شأنهما الشيء الكثير لأنهما أقل أهمية في رأيه. "فمزية المعروضات" - كما يؤكد مارسيه - "تكمن كلها تقريباً في رسم المنمنمات العربية وألوانها ونقوشها المحفورة في الجبس أو الصخر المزيّن". ويضيف أن

(1) **Jaqueton**, Gilbert: Georges Marçais, Manuel d'art musulman… (compte rendu), *Bibliothèque de l'École des chartes* , Année 1928, 89, p. 123; www.persee.fr/doc/bec_0373_6237_1928_num_89_1_460508_t1_0123_0000_001,

قيمة هذه المعروضات تكمن في كونها تعكس "تطوّر الأسلوب الفني [الذي] يتجلّى خصوصاً في الزخرفة... ويمكن في بعض الحالات تخمين تاريخ المنقوشة الكتابية أو المنمنمة والرجوع به إلى حد خمسين سنة تقريباً وتحديد مصدرها".

ويبرز من بين فصول الكتاب خصوصاً الفصل الثالث الذي خصّصه مارسيه للعمارة في عصر الخلافة الإسلامية في قرطبة، وهي المرحلة الزاهرة من تاريخ الحضارة الأندلسية. وقد درس فيه مارسيه فن العمارة وزخرفة المعالم الأثرية في المدينة، وأهمها جامع قرطبة، ذلك المَعْلَم الذي يمثل "عصارة الفن الإسباني الموريسكي بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد"، على حدّ قول عالـم الآثار الفرنسي وأستاذ تاريخ الفن إيلي لامبير Elie Lambert (1888-1961)[1]. ويتوقف مارسيه عند تاريخ جامع قرطبة، فيحلّل مختلف أجنحة المسجد ليبيّن كيف كان تصميمه الأول في عهد عبد الرحمن الأول، نهاية القرن الثامن، مستوحًى، في جانب منه، من تصميم الجامع الأموي في دمشق. ثم يستعرض الآثار الإسلامية في طليطلة حيث يعدّ المسجد

(1) **Lambert**, Elie: Georges Marcais, Manuel d'art musulman: L'Architecture (Tunisie, Algérie, Maroc, Sicile) [compte-rendu], in: *Bulletin Hispanique*, 1929, 31-2, pp.151-152. www.persee.fr/doc/hispa_0007-4640_1929_num_31_2_2342_t1_0151_000_1

الصغير المعروف بمسجد "باب المردوم"[1] Bib-Mardon "مَعْلماً فريداً... من معالم الفن الإسلامي في قشتالة قبل سقوط الأندلس". ويلخّص مارسيه في هذا الفصل آخر النتائج التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية التي أنجزها علماء الآثار الإسبان للتنقيب عن القصور الفخمة التي أسسها خلفاء الأندلس ووزراؤهم في نواحي قرطبة، خصوصاً في مدينة الزهراء[2] والمدينة الزاهرة[3].

---

(1) هو من أقدم معالم طليطلة الأثرية. يعود بناؤه إلى عام 390 هـ/999 م، حوّله الإسبان إلى كنيسة بعد سقوط الأندلس وحوّلوا اسمه إلى "مسجد نور المسيح" ermita del Santo Cristo de la Luz. ويعدّ في تصميمه المربع وأروقته وقبابه وأقواسه على شكل حدوة الفرَس من أبرز معالم العمارة الأندلسية ذات الأصول القوطية.

(2) تقع مدينة الزهراء الشهيرة على مسافة قريبة من قرطبة، وقد أسسها الخليفة عبد الرحمن الناصر بين عامي 936 و940م، على غرار قصور دمشق الأموية، وتشتهر بعمارتها وما استخدم فيها من الذهب والرخام. انطمرت المدينة وأعيد اكتشافها عام 1911 بعد حفريات أظهرت حتى الآن نحو 10% من مبانيها.

(3) هي مدينة بناها الوزير المنصور محمد بن أبي عامر في القرن العاشر الميلادي قرب قرطبة، على الضفة اليمنى للوادي الكبير، لتصبح مركزاً إدارياً لحكمه بدلاً من مدينة الزهراء، وبنى لنفسه فيها قصراً ومسجداً ونقل إليها دواوين إدارة الحكم وخزائن المال والأسلحة، وبنى فيها مساكن للبطانة والحرس، وأقام حولها سوراً ضخماً، وأقطع فيها أراضي للوزراء وأعيان الدولة فعمروها حتى اتصل بناؤها بقرطبة. تعرضت لاحقاً للدمار خلال فترة الاضطرابات التي انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس. انظر في هذا الشأن: **عنان**، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4 ، 1997، ج1، ص 535-536.

ويبرز بين فصول الكتاب كذلك الفصل الرابع، فهو في نظر إيلي لامبير "فصل بالغ الأهمية لمن يريد دراسة تاريخ الحضارة والفن في إسبانيا... إذ يقدّم فيه السيد مارسيه لمحة عامة حديثة جدّاً عن ملامح الفن الإسباني البربري في عهد الإمبراطوريتين المرابطية والموحّدية... [خصوصاً وأنّ] الآثار الكثيرة التي تعود إلى هذه الفترة من التاريخ الإسلامي قد دُمّرت بعد ذلك بالكامل تقريباً، ولم يبق منها قائماً سوى مئذنة "لاخيرالدا" بإشبيلية التي تكاد تكون هي المعْلم الوحيد الذي بقي شاهداً على قوة ما أنجزه كبار خلفاء الدولة الموحّدية"[1]. ويرى جاكتون أن هذا الفصل من كتاب مارسيه هو "أكثر الفصول متعة ويحتوي على أكثر المعلومات جدّة. وقد أفاد فيه جورج مارسيه من آخر الأبحاث التي أنجزها رونيه باسيه[2]،

(1) **Lambert**, Elie: Georges Marcais, Manuel d'art musulman: L'Architecture (Tunisie, Algeri, Maroc, Sicile) [compte-rendu], in: *Bulletin Hispanique*, 1929, 31-2, p.152.

(2) رونيه باسيه René Basset (1855-1924): مستشرق فرنسي ولساني متخصص في العربية واللغات البربرية، ولد عام 1855 في لونيفيل (فرنسا)، وتوفي في الجزائر عام 1924، كان أول مدير لمعهد آداب الجزائر، الذي تأسس عام 1879. من أعماله: "دراسة للغة زنّاتة المزابية" (نسبة إلى واحة المزاب، جنوب الجزائر)، و"دراسة في معجم البربرية" (1887)، و"ديانة البربر منذ القديم وحتى مجيء الإسلام"، و"بحوث في ديانة البربر" (1910)، وجميعها باللغة الفرنسية. له مجموعة تضم القصص والأساطير =

وهنري تيراس[1] وزملاؤهما، حول الآثار الموحّدية في بلاد المغرب،

= العربية في بلاد المغرب، نشرت لأول مرة عام 1924، ثم أعاد جمعها أبو بكر الشرايبي في مجلدين عام 2005، تحت عنوان "ألف قصة وقصة" Mille et un contes, récits et légendes arabes ونشرتها عام 2005 دار جوزيه كورتي للنشر (José Corti, Collection Merveilleux, 2005). كان عضواً في الجمعية الآسياوية بباريس، وله إسهامات في المجلة الآسياوية *Journal Asiatique*. كانت له أيضاً اهتمامات بدراسة أوضاع المسلمين في الصين، وله كتاب بعنوان "دعوات المسلمين الصينيين" Prières des Musulmans Chinois، نشر في كانتون بالصين عام 1876، ثم في باريس عام 1878. للمزيد من المعلومات، انظر:

Basset, Guy: *"Basset, René (1855-1924),* in: L'Algérie et La France, pp.96-97;

Qui êtes-voux? Annuaire des Contemporains. Notices Biographiques. Paris, C. Delagrave. 1924, p.44.

(1) **هنري تيراس** Henri Terrasse (1895- 1971) مؤرخ وعالم آثار ومستشرق فرنسي، ولد في فرينيي (فرنسا) عام 1895، وتوفي في غرونوبل (فرنسا) عام 1971. حصل عام 1933 على الدكتوراه برسالة عن الفن الإسباني الموريسكي من القديم حتى القرن الثالث عشر، وعيّن مديراً لإدارة المعالم الأثرية في المغرب عام 1935، ثم مديرا للمعهد المغربي للدراسات العليا عام 1941، ثم تولى عام 1945 الإشراف على كرسي الآثار الإسلامية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجزائر، خلفا لجورج مارسيه. وفي عام 1957 تولى إدارة مدرسة كازا دي فيلاسكويز، المدرسة الفرنسية بمدريد، التابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي في فرنسا، والتي يشمل =

والتي كشفت أعمالاً فنية كانت مجهولة أو المعلوماتُ عنها قليلة جدًّا حتى عهد قريب". ويرى مارسيه أن الحقبة الموحّدية التي توافق القرن الثاني عشر للميلاد حقبة من أخصب الحِقَب الفنية التي عرفتها إسبانيا وبلاد البربر، وإلى تلك الحقبة تحديداً "ترجع أكثر أعمال الفن الإسلامي في بلاد المغرب إبداعاً... وأجملها وأجلّها"، وهي معالم معمارية تعود إلى فترة حكم عبد المؤمن بن علي (مثل مسجد مدينة تازة في منطقة الريف شمالي المغرب، وجامع مدينة تِنمال شمالي الأطلس، وجامع الكتبية في مراكش، الذي يعدّ من أبرز المعالم الإسلامية في المغرب وأكثرها أصالة)، أو تلك التي تعود إلى فترة حكم يعقوب المنصور (مثل جامع حسّان وصومعته الشهيرة في مدينة الرباط، وباب الرواح الذي يتوسط سور مدينة الرباط الحصين، وباب قصبة الأوداية العابقة بأجواء الأندلس في المدينة نفسها، وباب أَكِنّاو في مراكش، ومئذنة جامع الكتبية في مراكش، ومئذنة إشبيلية الشهيرة باسم لاخيرالدا La Giralda).

= نشاطها مجالات التعليم العام والعلوم والثقافة، وبقي على رأسها حتى تقاعده عام 1965. انظر لمزيد من المعلومات:

Golvin, Lucien: "Henri Terrasse (1895-1971)- Publications d'Henri Terrasse", in: *Revue de l'Occident et de la Méditerranée*, vol. 12, no. 1, 1/11972, pp. 7-21.

ويتوقف مارسيه عند السمات الفنية للآثار المعمارية الموحدية فيقول: "تتميز هذه المرحلة [الموحّدية] من حيث الزخارف بالبساطة والرصانة النبيلة، وهي سمات تقابل الترف الفني الذي تميزت به الخلافة الإسلامية في قرطبة"؛ ويضيف: "نحن هنا أمام أسلوب جديد، بسيط من دون أن يكون فقيراً، متين ومُشرق، ذي مظهر يختلف شيئاً ما عن مجمل الفن الإسلامي المغاربي الذي يمتدّ من الجامع الكبير في قرطبة إلى قصر الحمراء، وهو أسلوب يتيح للبصر أن يسترسل في مشاهدته بارتياح عبر مساحات ممتدة فسيحة، تنسجم فيها الزخارف المنقوشة مع رشاقة الخطوط المعمارية". ويعلّق جاكتون على ذلك فيقول: "إذا كان السيد جورج مارسيه يقرّ بأن سمات هذا التطور الذي شهده الفن الإسلامي تعود إلى صرامة الأسلوب المعماري الذي عُرف به الموحدون الأوائل، فإنه ينسبه كذلك إلى مؤثرات من الفن الإسلامي الذي عرف في إفريقية [تونس وشرق الجزائر] خلال القرنين العاشر والحادي عشر. ويعود الفضل في هذا الفن المعماري الموحّدي خصوصاً لفنانين من أصول إسبانية أندلسية"[1].

(1) **Jaqueton**, Gilbert: Georges Marcais, Manuel d'art musulman… (compte rendu), www.persee.fr/doc/bec_0373-6237_1928_num_89_1_460508_t1_0123_0000_001

ويرى مارسيه أن حكام الدولة الموحّدية، رغم أمّيتهم وجذورهم الجبلية، لم يروْا ضيراً في الاستفادة من مزايا الحضارة الأندلسية وأتاحوا الفرصة لازدهار الفن وتطوره من خلال نشاطهم في البناء والتعمير. كما أنهم نجحوا في تحقيق الوحدة السياسية بين إسبانيا الإسلامية وبلاد البربر كاملة، من الأطلسي وحتى خليج قابس، فأسهموا في ازدهار "ذلك التأليف المتجانس الذي ميّز الفن الإسلامي في بلاد المغرب". ولقد مهّد الغزو الموحّدي لإفريقية السبيل لحدوث تلاقح فريد بين الفن الإسباني المغاربي "وجملة من الأساليب الفنية الجديدة التي عرف كيف يستوعبها ويدمجها ضمن رصيده بسهولة".

لعل في هذه الملحوظات المبتسرة حول كتاب "الوجيز في الفن المعماري الإسلامي" ما يكشف القيمة التي يحملها هذا الكتاب فهو، كما يقول جيلبير جاكتون، "ليس مجرد تجميع منظم للمعلومات، ولا هو مجرد كتاب مرجعي، بل هو شيء غير ذلك وأفضل من ذلك بكثير. إنه عمل أصيل في كل جوانبه، يتجلّى في كل صفحة من صفحاته فِكرُ السيد جورج مارسيه الموسوعي والبنّاء"[1]، وهو، في نظر إيلي لامبير، عمل جليل "جاء ليسدّ نقصاً كبيراً في معلوماتنا عن الحضارة الإسلامية...

(1) السابق نفسه.

وهو بالنسبة إلى من لا يعرفون سوى إسبانيا دليل يكشف لهم كيف أن دراسة الفن الإسباني الموريسكي خلال القرن الرابع عشر لن تكون كاملة وستظل فقيرة ما لم تُستكمل بدراسة المعالم العمرانية العديدة في بلاد المغرب؛ وذلك ما نجح السيد مارسيه في تحقيقه بشكل مدهش في كتابه هذا"[1].

حين صدر كتاب "الوجيز في فن العمارة الإسلامي" أول مرة عام 1927، أوْدع فيه جورج مارسيه حصيلة غنية من الأبحاث قادته من إسبانيا عبر شمال إفريقيا إلى صقلية، لكنه سرعان ما أدرك أن الكتاب بات قديماً، فلم يعدْ راضياً عنه بعد الاكتشافات الكثيرة التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية التي أنجزها باحثون إسبان، مثل مانويل جوميز مورينو وتلامذته، وليوبولدو توريس بالباس، وإيميليو جارسيا جوميز. فإذا به يعكف على مراجعته بالحماسة نفسها والنشاط الذي كان يحرّكه قبل عقدين من الزمن، ليصدره من جديد عام 1955، في طبعة منقّحة ثرية بالأفكار الجديدة والحقائق غير المعروفة، تحت عنوان "العمارة الإسلامية في بلاد المغرب"[2].

---

(1) **Lambert**, Elie: Georges Marçais, Manuel d'art musulman: L'Architecture (Tunisie, Algérie, Maroc, Sicile) [compte-rendu], in: *Bulletin Hispanique*, 1929, 31-2, p.152.

(2) **Marçais,** Georges: L'Architecture musulmane d'Occident. Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile. Librairie Picard, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1955.

يقول جورج مارسيه عن هذه الطبعة الجديدة من كتابه إنها "في الوقت نفسه النسخة ذاتها من نظيره القديم وطبعة مغايرة لها تماماً". ويقول عنه إيلي لامبير: "إنه إنجاز جديد تماماً، وحصيلة حقيقية للمعلومات التي تجمّعت لدينا عن الفن الإسلامي والفن ذي المؤثرات الإسلامية في بلاد المغرب وأوروبا وصقلية، والتي توصّل إليها السيد مارسيه نفسه وتلامذته"[1].

وهكذا، وإضافة إلى ما ورد من معلومات عن تاريخ الفن والعمارة في بلاد المغرب في الطبعة الأولى من الكتاب، يُضمّن مارسيه الطبعة الجديدة تفاصيل أخرى وافية عن جامع قرطبة، وتاريخ عمارة جامع عقبة في القيروان، وعمارة المساجد في إفريقية بشكل عامّ، وعمارة الأسوار ووسائل الريّ، والتطورات التي شهدتها العمارة الإسلامية، خصوصاً في المغرب الأقصى إبّان حكم السعديين، بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأيضاً في تونس والجزائر تحت الحكم العثماني. ويعلّق إيلي لامبير على ما أنجزه مارسيه في هذه الطبعة الجديدة من الكتاب فيقول: إن ما يمكن للقارئ أن يخرج به هو "أن الفن الإسلامي لم

(1) **Lambert**, Elie: Georges Marcais, L'Architecture musulmane d'Occident. Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile (compte-rendu), in: *Journal des savants*, Janvier-Mars, 1956, pp.19-34.
https://www.persee.fr/docljds_0021-8103_1956num_1_1_5970

يقل كلمته الأخيرة - كما يصرح بذلك مارسيه نفسه - وإن [هذا العمل] سيعرّفنا أكثر من أي عمل آخر ويجعلنا نفهم بشكل أفضل تاريخ فنّ قد يبدو لبعضهم فنّاً... يخاطب فينا الفكر أكثر مما يخاطب الإحساس بما يتميز به من غياب الأشكال الحية والمزيج البارع بين... الزخارف النباتية والنقوش الكتابية والهندسية. لكن السيد مارسيه، من خلال تحليله لكل التطورات المعقّدة التي مر بها هذا الفن بمختلف أشكاله ومراحله، قد جعلنا نحس - إحساس المؤرخ والفنان في الوقت نفسه - أنه ليس فقط فنّاً حيّاً ولكنّه أيضاً فنّ ينفرد بغناه الرائع وبساطته الصارمة فضلاً عن أناقته وانسجامه ونعومته، وأحياناً، عظمته"[1].

حول كتابه "الفن الإسلامي"[2]:

يعدّ هذا الكتاب، على صغر حجمه، من أهمّ مؤلّفات جورج مارسيه. إذ عمل فيه على تحديد الملامح الرئيسية التي

(1) السابق، ص 34.

(2) **Marçais,** Georges : L'Art Musulman, Collection Quadrige, Presses Universitaires de France, 1991.
وهناك ترجمتان عربيتان لهذا الكتاب؛ الأولى لعفيف بهنسي. مراجعة عدنان البنى. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق 1968؛ والثانية لعبلة عبد الرازق. مراجعة عاطف عبد السلام. المركز القومي للترجمة. القاهرة 2016. والمقتطفات الواردة هنا محال عليها بصفحاتها - مع بعض التصويبات الطفيفة - في ترجمة عبلة عبد الرازق.

تميز الفن الإسلامي بمختلف تقسيماته. وقد قسمه إلى قسمين، خصّص القسم الأول منهما لما سمّاه "العالم الإسلامي الموحَّد" وتحدّث فيه عن الفن الأموي في سوريا (أو بلاد الشام)، والفن العباسي، والفن المصري، والفن في إفريقية. وخصّص القسم الثاني للحديث عن الفن الإسلامي في عهد ما سمّاه "الخلافات الثلاث المتنافسة"، ويقصد بذلك الفن الإيراني والفن الفاطمي والفن الإسباني المغربي. وختم كل قسم بخلاصة أجمل فيها أهم النتائج التي توصل إليها. وتخلّلت الكتابَ مجموعة كبيرة من الصور التي التقطها مارسيه لعدد كبير من الأعمال الفنية والمساجد والمنشآت المعمارية الإسلامية في مختلف الأقاليم التي زارها والتي شملتها دراسته.

عالج جورج مارسيه في كتابه هذا مسألة هوية الفن الإسلامي الذي ازدهر في أقاليم مختلفة من الإمبراطورية العربية الإسلامية، وتداخل مع ثقافات شعوب تلك الأقاليم واختلط بها، وورث مظاهر الفنون والعمارة التي كانت سائدة في بلاد الشام، والتي ترجع إلى الحضارتين الساسانية والبيزنطية، فظلّ تحديد هويته محاطاً بغير قليل من الجدل، مثلما يلاحظ عفيف بهنسي في مقدمة كتابه "جمالية الفن العربي"، نتيجة للاعتقاد بأن هذا الفن ارتبط بمفاهيم الإسلام وبأغراضه، وأنّه مَدِين لدولة

الإسلام التي انتشرت على أرض غير عربية أكثر من أن يكون مَدِينا لتراث عربي أصيل. ولقد تراجع هذا الرأي الذي صدر على لسان كثير ممن كتبوا في فلسفة الفن مؤخراً، ومنهم جورج مارسيه نفسه[1].

يقول مارسيه: "إن الفن الإسلامي له خصائصه المميزة التي جعلته يختلف عن شتى الفنون الأخرى، وهو أمر لا شك فيه، ويكفينا أن نذكر أهمّ خصائصه، وهي (روح العائلة) التي ألّفت بين أواصره [إذ] تظهر للناظر إليها من الوهلة الأولى، فالقرابة واضحة، وقد تختفي حيناً حين نبدأ في تحليلها، ولا يعنينا هنا أن نتتبع جميع العمائر الإسلامية لمعرفة عناصرها المختلفة، فوحدتها أكيدة، وعناصرها متنوعة، ولا غرابة في ذلك، فالفن الإسلامي لم يكن متماثلاً يوماً ما، بل كان متغيراً دوماً، لأن الفن مثل اللغة كائن حيّ قانونه التغير" (ص.19).

ويحاول مارسيه التقريب بين الفن الإسلاميّ واللغة العربية، فيقول: "فاللغة العربية... أصبحت فيما بعد لسان قوم واحداً على الرغم من المسافات والتنوع بين شعوب العالم الأوحد، فإنها درّست في كل المدارس، كما دوّن بها المثقفون من الهند إلى

(1) للمزيد في هذا الشأن، انظر: **بهنسي**، عفيف: جمالية الفن العربي. سلسلة عالم المعرفة 14، فبراير 1979، ص10 وما بعدها.

المغرب لأنها لغة القرآن، أي اللغة المقدسة التي نزل بها الوحي، مما أثّر في العمائر الإسلامية فطُبعت بطابع مميز هو (روح العائلة)، كما استخدمت الزخارف الكتابية في الأثاث المستعمل في الحياة اليومية، فنجد الأثاث المغربي ذا الطابع الشرقي، أي الطراز المجلوب من الأراضي المقدسة (الجزيرة العربية). والعامل التجاري بدوره قد لعب دوراً أساسياً، حيث ارتبط بأيام الحج، وهو فريضة على كل مسلم أن يؤدّيها مرة واحدة طيلة حياته، مما أسهم في توطيد وترسيخ أواصر تلك الأمة المترامية الأطراف. وهكذا ظهرت هذه الوحدة جلية في العمارة الدينية، ولأن الفن [الإسلامي] كان وقبل كل شيء أُعدّ لخدمة الشعائر الدينية..." (ص.14).

ويربط مارسيه تطور الفن الإسلامي بالتطور السياسي والاقتصادي الذي مرّت به دولة الإسلام عبر التاريخ فيقول: "خلال ثلاثة عشر قرناً مضت على نشأته، لم يكفّ الفن الإسلامي عن تجديد نفسه كأي كائن حي له تطوره وله تاريخه، والذي ما زالت بعض فصوله نجهل الكثير منها... ذلك أن تاريخ تطور هذا الفن قد تأثر، بل طُبع بتاريخ تطور الإسلام السياسي، فالنتاج الفني يلزمه دائماً نوع من الاستقرار الاجتماعي والازدهار الاقتصادي المرتبط بقوة الإمبراطوريات أو (الأسرات الحاكمة)" (ص.19).

كما يربط مارسيه بين سمات العمارة الإسلامية والتضاريس والظروف الطبيعية السائدة في مختلف مدن العالم الإسلامي فيقول: "فقد بدا تأثير الظروف الطبيعية واضحاً على العناصر الأساسية للعمارة الإسلامية قاطبة، فندرة الأمطار والمناخ الصحراوي الجافّ قد أظهرا أهمية المياه عند مؤسسي تلك المدن، ولذلك أكثروا من بناء الأسبلة العامّة، كما زوّد الكثيرون من نبلاء الطبقة البرجوازية قصورهم ومنازلهم ببِرَك المياه والنوافير..." (ص.11).

ويواصل مارسيه شرح سمات العمارة الإسلامية قائلاً: "وإذا كان المعماري قد أخذ في الاعتبار عامل الشمس وكيفية توزيع أشعتها عند بناء السكن، فقد اهتم أيضاً بالزخرفة الخارجية التي تضفي على المكان هيبته، فالنحت ذو الزخارف الدقيقة لم يكن موفَّقا لتدفُّق أشعة الشمس منه على المبنى، بل يجب أن تكون كُتل الأبنية بسيطة حتى تتلقى هذه الأشعة ليُستفاد منها في أكبر مساحة ممكنة، والإضاءة تُستخدم أيضاً في التخطيطات الشاسعة، كما أنها تتفاعل مع الألوان الزاهية فتُضفي عليها نوعاً من الانسجام، مما يُشيع الدفء في كل طبقات المكان. وهناك تطابق في كثير من أنماط الزخارف المعمارية المنتشرة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، والتي عرفت كيف تستفيد من أشعة

الشمس، ولنذكر بعضاً من هذه الملامح: خلوّ الجدران من أي زخارف، والبساطة في النتوءات البارزة، واستعمال تلبيسات وترصيعات من الخزف والسيراميك، ثم الأسلوب الفني الجديد، مثل الأشكال الموشورية التي عُرفت فيما بعد بالمقرنص، والزخارف التقليدية مثل الأطناف أو الزخارف ذات النقوش البارزة، وهكذا كان العامل الجغرافي هو الفعّال والمؤثر في تاريخ الفن الإسلامي" (ص.13).

لكن العنصر الفني المشترك بين جميع البلاد الإسلامية في نظر مارسيه، هو "استعمال النقوش الضئيلة أو المسطّحة التي عُرفت بالأرابيسك، والذي ينتمي إلى فنون العالم الهلينستي القديم. وكان استدعاء العمّال والفنّانين المهرة من شتّى بقاع العالم الإسلامي وانخراطهم في العمل بعضهم مع بعض في وحدة متجانسة مميزة طبعت بها مدارس الفنون الجديدة. وإذا كانت نقاط الالتقاء والاتصال قد لعبت دوراً مهمّاً عبر الأزمنة التاريخية وأثّرت في الفنون الإسلامية منذ ولادتها عبر مراحل... نضجها، فإن الإسلام نفسه كان القوة الجامعة وترك بصمته على هذا الفن" (ص.13-14).

ويعود مارسيه للربط بين الإسلام والسمات الفنية للعمارة الإسلامية، فيقول: "ولا توجد أي عمارة أو بناية خاصة في أي

قطر إسلامي إلا وقد طُبعت بطابع الدين، فالإسلام قد اخترق الحياة الخاصّة والعامّة، فانبثقت منه تقاليد أثّرت في الروح المعمارية والإنسانية، فكما فُرض على المرأة المسلمة ارتداء الحجاب عند السير في الطريق، فقد فُرض ذلك أيضاً عند بناء الحرملك [جناح النساء في البيوت] فتطابق الاثنان، فأصبح السكن منغلقاً عن العالم الخارجي، حيث يُمنع الأغراب من اختراقه... حفاظا على خصوصية الحياة [الداخلية] وأصبح الانفتاح للداخل... وأما القاعة الرئيسية... فقد طُوّعت لخدمة العامل الاجتماعي، وهو الحفاظ على الحياة العائلية، مع الإشارة أيضاً إلى التقليد المعماري السائد المأخوذ من المنزل الروماني. وهكذا تفاعل العامل التاريخي مع المفهوم الأُسَري الملتحم بالدين، وفي الأسرة المسلمة أكثر من ملمح من الأسرة الرومانية، إذ عاشت كلتاهما في بقاع العالم القديم، فوجدنا القاعة التي يتوسطها الصحن في المنزل، وكان هذا هو الإطار المناسب لمطالب حياتهم" (ص.17).

ويقارن مارسيه بين سمات عمارة المساجد والمنازل في العالم الإسلامي؛ فيرى أن تخطيط المساجد جاء ليلائم العبادات، في حين أن تخطيط المنزل نابع من الفكر الأخلاقي لدى المسلم؛ ولهذا فهو يرى أنّ "علينا الرجوع للعقيدة الإسلامية

لفهم الزخارف الإسلامية التي تقوم على التوحيد" ورفْض الشرك وعبادة الأوثان، وعقيدة التثليث لدى المسيحيين "لأن الله واحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، وهو الروح الطاهرة الذي لا يمكن أن يظهر في صورة بشرية... ومن هنا جاء استناد بعض المتشدّدين لتحريم التصاوير والوجوه الآدمية والحيوانية، كما رأوا أن إقامة التماثيل للآدميين، هو رجوع لدين السلف ونوع من الشرك بالله..."، وقد ظهر هذا النهي "جليّاً في زخرفة العمائر الدينية والأدوات الخاصة بالعبادات..."، وكان لهذا أثره الواضح في تطور الفن الإسلامي. ومن هنا كان "للزخارف الكتابية دور رائد في الفن الإسلامي، [تأكيداً] للعقيدة و[ترسيخاً] لحقيقة التنزيل السماوي للقرآن وما يحتوي من آيات فيها شفاعة للناس، وقد أكثر الفنّان من استعمال الزخارف والنصوص الكتابية في جدران المساجد، وتزيين بعض القصور والمساكن بالأشرطة الكتابية التي تحمل نصوصاً من القرآن الكريم، كما وجدناها منقوشة على بعض الأدوات ذات الاستعمال اليومي، وأحياناً كانت تُكتب كلمة واحدة تدلّ على الفأل الحسن، أو صيغة من الصيغ الإيمانية، أو دعوة بالخير والبركة... كانت تخاط أو تنقش على الملابس، كما وجدت أيضاً على بعض الدروع والسيوف وكؤوس الشراب.

وقد استُعمل الخط النسخي السائد، أو الكوفي ذو الطابع العتيق والصعب قراءته أحياناً، إلا أنه كان ناجحاً في زخارف العمائر الإسلامية. وهكذا [ترك] الإسلام طابعه على شتى أنحاء الحياة اليومية، وحتى في الأغراض الجنائزية، وبذلك عُرف فن الأقطار الإسلامية بالفن الإسلامي..." (ص.17-18).

ويعود مارسيه في فصل لاحق من كتابه لبيان رؤيته لإشكالية هوية الفن الإسلامي وتطوره بشكل أكثر تحديداً، فيقول: "إذا استثنينا إقليم إيبيريا الموديخار Mudéjar[1]، وهي إسبانيا المسيحية الموريسكية المتأثرة بالإسلام، والمغرب الأقصى الذي ظل غيوراً على استقلاله حريصاً على إحياء ماضيه الذهبي، فقد عرف العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأخيرة تطوّراً فريداً، إذ طرأت ظروف تاريخية عارضة واكبها قيام الدولة العثمانية في القسطنطينية وامتداد سيطرتها عبر بلاد المشرق، ليتحوّل مركز السلطة الروحية والدنيوية ومصدر الإشعاع الحضاري الفني والمعماري من المدينة [المنوّرة] ودمشق وبغداد إلى القسطنطينية وما جاورها من مدن أوروبا وآسيا الصغرى، مثل سالونيكا أو

(1) يعود هذا الاسم إلى الإسبانية القشتالية، لغة إسبانيا في القرون الوسطى، وهو مشتق من العربية (مدجّن)، ويشير إلى المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد انتهاء الحكم الإسلامي، وكذلك إلى الفن الإسباني المتأثر بالفن الإسلامي وإن كان من إنتاج حرفيين مسيحيين.

بورصـة، أي إلى المجال الجغرافي القديم للدولة البيزنطية" (ص.305). ومن المظاهر الأبرز لهذا الإشعاع انتشار المساجد ذات القباب الضخمة في كل من مصر وتونس والجزائر"، وهي قباب يرى مارسيه أنها مستوحاة، في تصميمها الأخير، من قبة كنيسة "أيا صوفيا" والمباني ذات الطابع المشابه. وهكذا، "ونتيجة لظروف غير متوقّعة، وجد المسلمون في تصاميم كنائس المسيحية أيام الإمبراطور جوستينيان عناصر مختلفة تماما قاموا بتطويعها لمقتضيات شعائر دينهم، بعدما كانوا قبل ذلك بتسعة قرون يستوحون الطراز الإيوانيّ للكنائس المسيحية في بناء مساجدهم ذات الأروقة المتوازية" (ص.305-306).

ويتوقف مارسيه عند عوامل انتقال المؤثرات التي طبعت الفن الإسلامي عبر الأقاليم الإسلامية على امتدادها فيقول: "ومما لا شك فيه أن الفن الإسلامي منذ نشأته كان البوْتقة التي جمعت بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، فإنّ الرحلة البحرية التي بدأت من المحيط الهندي قد مرّت بمراحل عدة بداية من ماليزيا والساحل الإفريقي، ثم طريق الحبوب، وطريق الحرير البرّيّ، ممّا أسهم في جعل الشرق الأوسط إحدى القوى الناقلة للحضارات من منطقة وسط آسيا والصين إلى الغرب، وعلى مرّ السنين استقت فنون الإسلام من البرونز والخزف

والأقمشة التأثيرات المباشرة وغير المباشرة عليها" (ص.307).

ويختم مارسيه بخلاصة تجمل رؤيته لهوية الفن الإسلامي والعناصر التي أسهمت في تشكيله فيقول: "إنه لحقيقة واقعة لا مجرّد ملاحظة، ولو عابرة، أن للفن الإسلامي سمات تميزه من باقي الفنون. غير أن هذه السمات العامّة تبدو وكأنها ملامحُ شبَهٍ له بفنون أخرى تربطه بها علاقات قرابة ويلحظها الغرباء مباشرة لكنها تخفى على أبنائه، وتتلاشى عند التحليل". ويضيف مارسيه: "ليست شخصية الفـن الإسلامـي موضوع جدل، إلا أنه - وهو آخر وليد في فنون عالمنا القديم - مدين بالكثير للفنون التي سبقته، لا محالة. ولما كان مهْد الفنون هو آسيا الغربية التي شهدت ازدهار أكثر الحضارات أهمية، فقد جنى من تراثها ولكنه اختار منه ما شاء وتمَثَّل ما احتفظ به من عناصر، ثم أعطى هذه العناصر طابعه الخاص، أعطاها وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على أصولها. وقد كفى هذا الفنَّ أن تمرّ مائة عام من الزمن لكي يترسخ في أعمال لم يعدْ بالإمكان نسبتها إلى الفنون القديمة التي أغنته. وظل على مر القرون يـبتعد شيئاً فشيئاً عن المؤثرات التي أحاطت بمقْدَمه إلى العالم"(ص.7-8).

وبهذا استطاع الفن الإسلامي بعد قرون عدة أن يعيد صياغة نفسه في أعمال فنية خاصة به بعيدة تماماً عن الأنساق القديمة

التي نبع منها، حتى بات من الصعب تحديد طرازها الأصلي الذي انبثقت منه. وكان استدعاء الحرفيين والفنانين المهرة من شتى بقاع العالم الإسلامي وانخراطهم في العمل مجتمعين في وحدة متجانسة عاملاً حاسماً في خروجهم بأعمال فنية جديدة متميزة.

حول كتابه "لباس المسلمين في مدينة الجزائر"[1]

صدر هذا الكتاب سنة 1930 برعاية لجنة الاحتفال بمئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر. وقد عرض فيه المؤلف صورة عامة عن ملابس سكّان الجزائر خلال فترة ما قبل الاحتلال. يقع الكتاب في أربعة فصول: الفصل الأول، وخصّصه للحديث عن لباس البربر والعرب، والفصل الثاني للحديث عن لباس الأتراك. وأما الفصل الثالث فكان عن لباس البدو، وتناول الفصل الرابع لباس المرأة الجزائرية. وفي الكتاب مجموعة مختارة من الصور التوضيحية. ويقول مارسيه عن كتابه هذا: إنه استطاع أن يستفيد فيه من المجموعات المعروضة في متحف الجزائر للآثار القديمة والفن الإسلامي، الذي يتولّى إدارته، وتضمّ رسوماً بالقلم وأخرى مائية ونقوشاً تعود إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى

(1) **Marçais**, Georges: Le Costume Musulman d'Alger, Paris, Plon, 1930.

التاسع عشر، أدرجها ضمن الكتاب وعلّق عليها[1]. وقد حرص في تأريخه للّباس الجزائري على إبراز العادات التي تعكسها تصاميم الثياب المختلفة، والتقاليد المقترنة بكل من الفئات الاجتماعية والمناطق والحضارات التي ارتبطت بها. ورغم محاولته تحديد اسم كل من قطع اللباس التي عرضها في الكتاب حسب نوعها والوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه مستعملوها، فقد ظل مارسيه مقيّداً بعدد محدود من الأسماء لم يتجاوزها كثيراً، وتعود إلى المراحل الأولى من الحكم العثماني في المنطقة (أي إلى حوالي عام 1518م). وكان تصنيف الألبسة في الكتاب حسب التركيبة الإثنوغرافية للسكان، والتي جاءت إدارة الاحتلال الفرنسي لترسّخها. ونتيجة لذلك، قسّم مارسيه الفئات العرقية المختلفة في الجزائر إلى الفئات ذات الأصول التركية، والموريسكية، والعربية، والبربرية، واليهودية، والزنجية الإفريقية. وعلاوة على ذلك، اعتمد مارسيه طريقة في توثيق المعلومات التي تَضمَّنها كتابه بناء على أنماط الزينة لدى الفئات الحضرية الميسورة. وكان مارسيه في كتابه حريصاً على ضرورة المحافظة على التقاليد المتغيرة بفعل موجات التحديث التي تمر بها الشعوب، ويقول بنبرة المتحسّر: "بعد سنوات قليلة، سيتحوّل

(1) المرجع السابق، ص 1.

اللباس الأصيل في الجزائر إلى مجرّد ذكرى جذابة... بفعل التطور السريع الذي أسهم به حضورنا إلى هذه البلاد"[1].

حول كتابه "تونس والقيروان"[2]

صدر هذا الكتاب سنة 1937 ضمن سلسلة "مدن الفن الشهيرة"، ويقع في 154 صفحة، وضمّنه الناشر 116 صورة ورسماً جميلاً اختارها من بين مجموعة كبيرة وضعها المؤلف بين يديه. يقول المستعرب الفرنسي موريس غودفروا ديمومبين Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957) المتخصص في تاريخ الأديان والحج: "إن هذا الكتاب نفيس بالنسبة إلى عدة فئات من القراء: نفيس للسائح الذي يزور تونس، إذ سيجد فيه ما يساعده على إدراك ما تحمله المعالم الأثرية ونمط الحياة في كلتا المدينتين من قيمة؛ وهو نفيس للحضري الكسول الذي

---

(1) نفسه، الصفحة نفسها، وانظر كذلك:
Guignard, Didier: Une polysémie vestimentaire dans l'Algérie rurale de l'entre-deux-guerres, in: **Corriou**, Morgan & **Oualdi** M'hamed (ed.): Une histoire sociale et culturelle du politique en Algérie et au Maghreb. Etudes offertes à Omar Carlier; Editions de la Sorbonne, pp. 127-142, 2018.
https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01877058/document

(2) **Marçais**, Georges: Tunis et Kairouan, Collection Les Villes d'Art Célèbres, Paris, Henri Laurens, 1937.

سيجد فيه صوراً ممتازة تجعله يتجوّل عبرها في المدينتين وهو مسترخٍ جالس على أريكته؛ وهو نفيس أخيراً وليس آخراً بالنسبة إلى المؤرخ الذي سيجد فيه اللمحات التاريخية الضرورية عن ماضي مدينتين عظيمتين وماضي بلاد المغرب كلّها وقد عُرضت بأسلوب أنيق مؤثر"[1].

والكتاب، في جانب كبير منه، كتاب في التاريخ، تاريخ بلاد البربر، وهو تاريخ منطقة يرى الناشر أنها كانت في تلك الفترة لا تزال غامضة ومجهولة، منطقة غنية كانت واحدة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، وشهدت تحولاً كبيراً على يد العرب الذين قدموا ليحطّوا فيها رحالهم. ثم تنافست عليها ممالك إسلامية متتابعة، بدءاً من الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين، ووصولا إلى الحفصيين والأتراك العثمانيين. ونتيجة لذلك، فإن تقديم لمحة عن التطور السياسي والفني لحضارة كهذه توالت عليها الهزات العنيفة عمل ليس بالهيّن.

بذل جورج مارسيه جهداً بالغاً في كتابه هذا لدراسة مدينتين

(1) **Gaudefroy-Demombynes**, Maurice (reviewer): Tunis et Kairouan (Les Villes d'art célèbres) by Georges Marçais, in: *Revue Historique*, T. 186, Fasc. 1, Mémoires et Études (1939), Presses Universitaires de France, pp. 164-169. Stable URL: https://www.jstor.org/stable/40947115

والمعلومات الواردة في عرضنا هذا للكتاب مقتبسة في جانب كبير منها من هذا المقال.

مختلفتين جداً فيما بينهما: القيروان وتونس. ومن البداية، يحاول أن يكشف لقارئه الإطار التاريخي الذي رافق نشأة المدينتين، فيطلب منه وهو يقدّم له مدينة القيروان بأن يتخلى عن فكرة مسبقة مترسخة بأن الإسلام دين أسسته جماعات من البدو الرحّل. والحال أن الحقيقة خلاف ذلك؛ فالإسلام، كما يؤكد مارسيه، نشأ في مكة [المكرمة] حول الكعبة، وفي المدينة [المنورة] حول المسجد النبوي، وإن الذين شاركوا في نشره هم حضَرٌ من المدينة ومكة والطائف، وحضَرٌ آخرون انضمّوا إليهم من اليمن ليشكّلوا، في الوقت نفسه، هيكلاً متيناً قامت عليه جيوش الفاتحين، وبناءً حضَرياً تشكّلت حوله الحياة الدينية والسياسية لمجتمع القيروان. كانت القيروان أول أمرها محطة توقّف عندها العرب المسلمون الفاتحون لمرحلة معينة، لكنها سرعان ما تحوّلت إلى معسكر دائم اختار القادمون تعميره والاستفادة من خصوبة السهول الممتدة المحيطة به.

وخلال القرنين الثامن والتاسع، أخذت القيروان في تطورها منحىً مشرقياً خالصاً، كما يرى مارسيه، بتأثير من بلاد الشام وفارس، فبلغت قمة ازدهارها، كما يشهد بذلك موقعُ جامعها الكبير، وضريحُ الإمام سحنون[1] (776-854)، وحقولُ الزياتين

(1) هو أبو سعيد عبد السلام سحنون بن حبيب التنوخي، من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب العربي. ولد في القيروان سنة 160هـ وتتلمذ على يد =

الممتدة حول أطرافها. وتحولت المدينة في تلك الفترة إلى أهم مركز للدراسات الفقهية في بلاد المغرب، على يد أعلام مثل الإمام سحنون، والقاضي أسد بن الفرات[1] (759-828).

وشهدت القيروان حتى القرن الحادي عشر قدراً لا بأس به من الازدهار الاقتصادي والفكري قبل أن تدخل في مرحلة من الكساد والأفول. لكن حجم العمارة والبنيان الذي تزخر به المدينة لا يزال باقياً - كما يرى مارسيه - ليشهد على ماضيها المزدهر. وأهمّ معالمها

= عدد من أكبر علمائها. رحل إلى المشرق طلبا للعلم فزار مصر والشام والحجاز، ثم عاد إلى القيروان سنة 191 هـ وعمل على نشر المذهب المالكي، ليصبح المذهب الأكثر انتشارا في بلاد المغرب والأندلس. تولى القضاء سنة 234 هـ وحتى وفاته سنة 240هـ/854م، ودفن في القيروان. من أشهر مؤلفاته "المدونة الكبرى" وقد جمع فيها مسائل الفقه المالكي.

(1) هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان قاضي القيروان وتلميذ الفقيه مالك بن أنس. ولد بحرّان، من أعمال ديار بكر بالشام، رحل أبوه من حرّان إلى القيروان، وأخذه معه وهو طفل فنشأ بها وتعلّم فيها. ثم رحل إلى الشرق طلبا للعلم وأخذ العلم عن الإمام مالك، ثم ارتحل إلى العراق وأخذ العلم عن أبي يوسف والشيباني مذهب أبي حنيفة. ثم زار مصر فقابل أئمة الفقه من أصحاب مالك. اشتغل بعد رجوعه إلى القيروان بالتدريس وأسهم في نشر مبادئ المذهبيْن الأكثر انتشارا وقتها، مذهب أهل الحديث من أهل المدينة، ومذهب الحنفية من أهل الرأي في بغداد. تولّى القضاء في القيروان سنة 204هـ/819م، ثم عيّنه الأمير الأغلبي زيادة الله بن إبراهيم أميرا على الجيش الذي وجّهه لفتح صقلية سنة 212 هـ/ 828 م. وتوفي بمرض الطاعون في أثناء حصاره لمدينة سرقسطة سنة 213 هـ/ 827م، ودفن فيها. من أشهر مؤلفاته "الأسدية في فقه المالكية".

العمرانية الجامعُ الكبير الذي أُسس في القرن السابع ثم أُعيد بناؤه في القرن التاسع. وإذا كان المراقب الغربي يتوقع أن يكون الجامع الكبير بالقيروان مَعْلماً عمرانياً عربياً أصيلاً، فإن مارسيه يكتشف فيه ملامح تأثير خارجية عديدة ومتنوعة الأصول، منها الرومانية والبيزنطية التي تكسو أعمدة الجامع والتيجان التي تعلوها؛ ومنها المسيحية التي تظهر في مخطط الجامع وتصميمه الذي يذكّره بتصميم الكنائس المسيحية الإيوانية الشكل، وكذلك مئذنته التي لا يرى مارسيه أي اختلاف بينها وبين الأبراج السامقة المربّعة التي يمكن رؤيتها في العديد من كنائس بلاد الشام. ولا يستغرب مارسيه ذلك التشابه، فالمآذن وأبراج الكنائس إنما قامت جميعها لينطلق منها النداء إلى الصلاة.

وأما تونس، فيذكر مارسيه أنها كانت أولَ نشأتها ميناءً صغيراً للبحّارة والصيّادين الفينيقيين، وأخذت تزدهر بدءاً من القرن الحادي عشر، حين أخذ نجم القيروان في الأفول. ويرى مارسيه أن المراقب سيكتشف في تونس هي أيضاً معالم عمرانية لا يستهان بقيمتها الفنية، وخصوصاً تلك القصور والمساجد والمتاحف التي يرى فيها تأثيراً واضحاً لفن العمارة المغاربي، وخصوصاً منه الموحّدي. وبدءاً من القرن السابع عشر، وبعدما تعرّضت تونس لموجات من الهجمات الإسبانية والتركية، بدأت تتسلل إليها تقاليد الحياة التركية، سواء في نمط اللباس أو تقاليد

الطبخ. ويرى مارسيه أن المقاهي أخذت طريقها إلى بلاد المغرب عن طريق تونس، في الوقت نفسه الذي استقرّت فيه عبر المدن الأوروبية. وأما العمارة في تونس، فقد طغت عليها، في نظره، مؤثرات تركية، لكنها امتزجت بملامح إيطالية في الزخرفة يرى مارسيه أنها كانت سلبية. لكن الأمر الذي يبعث على السعادة، في رأيه، هو احتفاظ العمارة التونسية بملامح ذلك الفن الموحّدي البسيط والباهر في الوقت نفسه، والذي يمكن للزائر أن يشاهده في عدد من المآذن والأضرحة.

هذا، وإن قارئ هذا الكتاب سيجد عبر صفحاته معلومات مفيدة لعالم الآثار والسائح على السواء، وأسراراً فنية بذل مارسيه جهداً كبيراً للتنويه بها ووصفها، "وإن المجموعة الرائعة من الصور التي أتحف بها المؤلف صفحات كتابه"، كما يقول موريس غودفروا ديمومبين، "لتبعث الحياة في كل جانب من جوانب ذلك العرض التاريخي المستفيض الذي تَضمَّنه الكتاب وتزيده دقة ووضوحاً... وإن الوصف الفني الدقيق الذي قدّمه مارسيه في هذا الكتاب لمدينتيْ القيروان وتونس ليعطينا فكرة واضحة عن تاريخ تونس منذ الفتح العربي"[1].

(1) **Gaudefroy-Demombynes**, Maurice (reviewer): Tunis et Kairouan (Les Villes d'art célèbres) by Georges Marçais, op.cit., p.166.

مختارات مما قال عنه بعض الباحثين

كتب عنه زميله روبير برونشفيغ:

"هو واحد من أنبل الأساتذة الذين أنجبتهم جامعة الجزائر... والذين حظوا بإعجاب جميع من عرفوه ومحبتهم. توفي جورج مارسيه... بعد حياة طويلة تميزت حتى نهايتها بالعطاء الفكري، سخّرها على مدى نصف قرن من الزمن لدراسة بلاد الغرب الإسلامي، وخصوصاً ما يتصل بتاريخها السياسي والاجتماعي والفني... بدأ حياته العلمية مبكراً ليبرهن على أرض الجزائر، حيث قضى كامل حياته العملية، ما يمكن أن يتمخض عنه ذلك المزيج المتجانس من الخصال العلمية التي مثّلت سعةُ العلم والذوقُ الرفيع أبرز سماتها من دون شك. فقد اجتمعت لديه أخلاقُ الباحث العميق المتأني، ودقةُ التحليل، ورصانةُ الحكم، والأسلوبُ الصارم الرشيق، إضافة إلى المعلومة العلمية المتينة المؤسَّسة.

وكانت لديه قدرة فائقة على الانطلاق من أكثر المعطيات العلمية دقة... وأكثر الدراسات اتساعاً ليضع يده مباشرة على

الأهم المفيد فيستخرجه من دون تكلُّف ويعرضه بكل وضوح وكفاءة... ومن أبرز أعماله رسالته (تاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر)... وكتابه اللاحق (بلاد البربر الإسلامية والمشرق خلال القرون الوسطى La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge)... وأما أعماله ومقالاته الكثيرة الأخرى، ومنها دراسته الشهيرة عن (الأربطة في بلاد البربر Notes sur les ribāṭs en Berbérie)[1]، فتناول فيها مسائل تاريخية عامّة وخاصة.

لكن براعة جورج مارسيه تجلّت أكثر ما تجلّت في مجال الآثار والفن الإسلامي، بدءاً من كتابه عن معالم العمارة العربية في مدينة تلمسان... الذي ألّفه بالاشتراك مع شقيقه الأكبر وليام، المستعرب المبرّز. وتوالت كتاباته المتبحرة ومقالاته وإسهاماته في الكتب الجماعية، وأعماله المتخصصة أو الموجهة لعامّة القراء، دون توان، لتثري القارئ العامّ والمتخصص على السواء.

ويبرز من هذا النتاج العلمي الزاخر كتابه "الوجيز في فن العمارة الإسلامي"، الذي نشر بباريس في مجلدين بين عاميْ 1926-1927، وأعيد نشره منقحاً بباريس عام 1955، تحت عنوان

(1) صدرت هذه الدراسة ضمن كتاب جماعي تحت عنوان Mélanges. René Basset, 1925

"العمارة الإسلامية في بلاد المغرب"... وأما "اللباس الإسلامي في الجزائر" فكان موضوع دراسة لطيفة على يديه نشرت بباريس عام 1930. وليس هناك جانب من تاريخ الشرق الأدنى وإبداعاته الفنية إلا وله فيه إسهامات تنمّ عن غير قليل من مهارة التقصي ورحابة الفكر.

وجميع من عرفوه من طلابه وزملائه يدركون ما كان عليه الرجل من دماثة الخلق والحس المرهف والبساطة في التعامل. كان يتسم بكثير من الحفاوة والكياسة والتسامح ولين الجانب؛ لكنه كان أيضاً صاحب مسؤولية وتفانٍ متى ما اقتضى الأمر ذلك. والجميع يذكرون ابتسامته الرقيقة، أو الساخرة أحياناً. حين فارقنا جورج مارسيه، في فترة متقاربة مع صديقيه ليوبولدو توريس بالباس[1] وإيلي لامبير[2]، وكلاهما متخصص بارز في تاريخ الفنون (والفنون الإسلامية الإيبيرية منها خصوصاً)، فإن مصابنا بفراقه قد طال التخصصَ بأكمله، كما طال الدراسات العربية والإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي الذي يحتلّ ماضيه

(1) **ليوبولدو توريس بالباس** Leopoldo Torres Balbas (1888-1960)، مؤرخ وعالم آثار ومهندس إسباني، عمل على إحياء الآثار الإسلامية في إسبانيا وكان محافظا لمتحف الحمراء بقرطبة لأكثر من عقد من الزمن.

(2) **إيلي لامبير** Elie Lambert (1888-1961)، مؤرخ وعالم آثار، تخصص في تاريخ الفن الإسلامي في إسبانيا.

وحاضره موقعاً بارزاً في تاريخ الأمم؛ ولقد أسهم جورج مارسيه بنصيب وافر في كشف خبايا هذا التاريخ. وستظل كتاباته التي لا تعوّض من عدة وجوه معالم باقية تشهد على ذكراه التي لم يألُ جهداً في بنائها بصبر وجدارة. وأمام هيبة الموت، احتفظت ملامحه بمسحة من السلام تنمّ، من دون شك، عن ثقة بأنه أنجز مهمته في الحياة بنجاح فائق".[1]

وقال عنه أوليغ غرابار[2]:

"هو مؤرخ فرنسي، بدأ حياته رساماً ونحاتا قبل أن ينتقل، بعد زيارة لأخيه الأكبر وليام في تلمسان، لدراسة اللغة العربية...

(1) **Brunschvig**, Robert: "Hommage à Georges Marçais", in: *Arabica*, vol. 11, Issue 1, 1964.

(2) **أوليغ غرابار** Oleg Grabar (1929-2011) مؤرخ فرنسي تخصص في دراسة تاريخ الفن والعمارة الإسلامية، وقد أسهمت دراساته وتحليلاته المتنوعة بدقتها في إحداث تغيير كامل للدراسات الغربية التي تناولت الثقافة الإسلامية. له كتاب قيم بعنوان (تشكّل الفن الإسلامي The Formation of Islamic Art, 1973) يعدّ مرجعا في مجاله درس فيه سمات الفن الإسلامي القديم، وقد أعيد نشره مع تعديلات وإضافات تراعي ما استجد من اكتشافات حول الموضوع. وقد حرص أوليغ غرابار في فصل جديد أضافه إلى الكتاب على تطوير نماذج بديلة تكشف تشكلات الفن الإسلامي، مع مراجعة أكثر ضبطا للتواريخ، ومناقشة ما ترتب على ذلك من نتائج تساعد على فهم طبيعة الفن المعاصر في العالم الإسلامي.

وكان مؤلفاً زاخر العطاء، عالج في كتبه وأبحاثه موضوعات شملت التاريخ والإثنوغرافيا والآثار، لكن أهمها كانت تدور حول العمارة، ومن هذا الجانب، يعدّ كتابه "الوجيز في فن العمارة الإسلامي في بلاد المغرب"... مرجعاً رئيسياً في المجال.

وعلاوة على وضوح العبارة الذي ميّز معظم أعماله، تكمن أهمية هذا العالم في جانبين ذويْ طابع أيديولوجي كان لهما حضور بارز لديه، وإنْ لم يعلن عنهما بصراحة كاملة. أولهما حرصه على إبراز أن هناك سمات محلّية تميز الثقافة والفن الإسلامي في بلاد المغرب (وهي سمات ذات أصول إسبانية وشمال إفريقية)، وتمتزج بسمات أخرى لها جذور رومانية، في مقابل ما هو سائد عن وجود وحدة ثقافية جامعة مركزها الشرق الأوسط... وقد أسهم جورج مارسيه في تأسيس متاحف محلّية وأخرى وطنية جمعت تراثاً فنياً يحق لأبناء المنطقة أن يفخروا به.

وأما الجانب الآخر، فاتجاهه إلى دراسة تاريخ المنطقة حسب الأسر أو السلالات التي حكمتها بحيث تظهر التحولات في أسلوب الفن والعمارة على نحو أوضح مما لو كان منحى الدراسة حسب الفترات التاريخية والأشكال الثقافية المتعاقبة. وإذا كانت مقاربته هذه على حساب تأثير المعالم التاريخية وأهميتها في حد ذاتها، فإنها في المقابل تتيح للقرّاء والزوّار أن

يحسّوا بأن ما يشاهدونه متجذّر في البيئة المحيطة والجماعات والأحداث التي صنعته.

وعلاوة على ما تركه مارسيه من كتب ودراسات معمارية، فإن له بحوثاً ومقالات تناول فيها قضايا تتصل بالفن الإسلامي شملت تنظيم المدن وأساليب تصوير الكائنات الحية في التراث الإسلامي وفن الزخرفة عند العرب. وقد لفت فيها النظر بكل عمق ودقة إلى ما هو أساسي في أي عمل فني وإلى السمات المميزة للفن الإسلامي"[1].

وقالت عنه الصحفية الفرنسية الجزائرية ألبيرت سادوييه

"لا أحد يجهل، سواء في الجزائر أو خارجها، من هو جورج مارسيه، عضو أكاديمية الآثار والفنون الجميلة، وأستاذ الآثار الإسلامية، ومدير معهد الجزائر للدراسات الشرقية، ومدير متحف الجزائر للآثار والفنون الإسلامية (وما هذه إلا بعض من المهامّ والمسؤوليات الرسمية التي اضطلع بها في حياته)... والذين كانت لهم وقفة إعجاب أمام لوحة من لوحاته، سواء كان صورة أو رسماً أوّلياً أو مشهداً طبيعياً، أو دراسة لمجموعة من الزخارف التي كان يتحف بها صفحات من كتبه العلمية الجادّة،

(1) راجع هذا المقال على الرابط:
https://doi.org/10.1093/gao/9781884446054.article.T054187

يعرفون كذلك أن الفن الإسلامي حظي بفنان قدير له عين لاقطة وقلم رشيق يتقن الوصف الدقيق...

لقد اكتشف مارسيه في نفسه موهبة لها بعدان: بعد فني وآخر ثقافي، فاختار أن يمارس موهبته لا من باب الهواية التي تجلب لصاحبها السعادة والمتعة، ولكن من باب العالم الباحث...

ويمكن لمن يتابع حياة هذا الفنان العالم أن يرى كيف امتزجت في أعماله حساسية مرهفة وعلم رصين متبحّر... ظهرت ثماره على مدى أربعين سنة على صفحات الموسوعات والدوريات العلمية ودُور النشر في فرنسا وخارجها... ولم تمنعه كل هذه الإسهامات العلمية من المشاركة في العديد من المؤتمرات الدولية والحفريات الأثرية. كما لم تمنعه من الالتفات، من حين لآخر، إلى هوايته الأولى ليجد فيها متنفَّسا لحساسيته الفنية المرهفة كيْ تبدع لوحات رائعة تصوّر نقوشا جدارية إسبانية موريسكية أو شخصيات محلّية متدثرة في بُرنُس تقليدي جزائري. وكثيراً ما كان يرسل العنان لقلمه وفرشاته ليرسم مشاهد ولوحات أتحف بها العديد من مؤلفاته العلمية، وقدّم من خلالها للقارئ المهتم بالفن الإسلامي فكرة دقيقة عن أسرار هذا الفن وتجلياته"[1].

---

(1) من حوار لجورج مارسيه أجرته الصحفية الفرنسية الجزائرية **ألبيرت سادوييه** Alberte Sadouillet (1899-1999)، ونشر في مجلة "الجزائر" =

وقال عنه مصطفى أبو ضيف أحمد

"... جورج مارسيه من خيرة الباحثين الذين توفروا على دراسة بلاد المغرب بحكم إقامته الطويلة فيها، وجَلَده المستمرّ على البحث في مختلف مرافق حياته وتاريخه..."، وتمتاز كتاباته "بغزارة المادّة وسعة الأفق والاستناد إلى المصادر ذات الصلة الوثيقة بالموضوع... والمنهج التاريخي الذي اتبعه الباحث، واعتماده على جمع النصوص الكثيرة... من مصادر متعددة...". وقد مكّنه المنهج التاريخي الذي اعتمده من "أن يكون في معظم الأحيان محايداً، لا تأثير لآرائه الشخصية ومعتقداته الدينية فيما تناول إلا قليلاً نادراً...". وكتابات جورج مارسيه "تعلّمنا بطريقة عملية كيفية استخدام المنهج التاريخي العلمي في دراسة التاريخ، وتقدّم لنا درساً قيّماً في صبر العلماء على معاناة البحث حتى يتملّكوا أدواته، ويتمكنوا من استيعاب أحداثه ثم يعرضونها بطريقة موضوعية أخّاذة"؛ وقراءة أعمال مارسيه "تمثّل متعة ذهنية في العرض والمنهج التاريخي الجدير بالاحتذاء"[1].

= الناطقة بالفرنسية *Revue Algeria* في فبراير 1952. انظر الحوار الكامل على الرابط:

http://www.editions-du-tell.com/fr/fichiers/popmarcais.htm

(1) من مقدمة د. مصطفى أبو ضيف أحمد لترجمة كتاب "تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامي منذ الفتح العربي وحتى نهاية=

وقال عنه أحد الصحفيين الفرنسيين:

"لقد سخر حياته للتنقيب عن المراحل التاريخية التي صنعت أمجاد الحضارات الإسلامية التي توالت عبر القرون في بلاد المغرب، وأهدى شعوب هذه المنطقة دراسات قيّمة عن تراثها الفني والتاريخي والأثري العريق، والأمل أن يعرف هؤلاء كيف يحفظون ذكرى هذا الرجل الذي خلّد لهم أمجادهم"[1].

= العصور الوسطى"، ترجمة محمود عبد الصبور هيكل. راجعه واستخرج نصوصه مصطفى أبو ضيف أحمد. منشأة المعارف. الإسكندرية 1991. ص 1-3.

(1) **Griessinger**, Charles: Georges Marçais, in: *l'Algérianiste*, no.54, juin 1991, revue publiée par l'Association Culturelle des Français d'Afrique du Nord.

بيان ببعض مؤلفات جورج مارسيه

ملحوظة: ذكرنا في متن هذا الكتاب وهوامشه جملة من أهم كتب جورج مارسيه ومقالاته، ولن نعيد ذكرها هنا، وسنكتفي هنا بذكر بعض من أعماله الأخرى.

أوّلاً. من مؤلفاته المترجمة إلى اللغة العربية

مارسيه، جورج: الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي. مراجعة عدنان البنى. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق 1968.

مارسيه، جورج: الفن الإسلامي. ترجمة عبلة عبد الرازق. مراجعة عاطف عبد السلام. المركز القومي للترجمة. القاهرة 2016.

مارسيه، جورج: "تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامي منذ الفتح العربي وحتى نهاية العصور الوسطى". ترجمة محمود عبد الصبور هيكل. راجعه واستخرج نصوصه مصطفى أبو ضيف أحمد. منشأة المعارف. الإسكندرية 1991.

مارسيه، وليام وجورج: المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان. تقديم وترجمة مراد بلعيد، علي بورويبة، فلّة عبد مزيام. شركة الأصالة للنشر والتوزيع. الجزائر 2011.

مارسيه، جورج: مدن الفن الشهيرة: تلمسان، مكتبة رينواد لوران، باريس، وصدر مترجماً إلى العربية عام 2003 وأعيد نشره عام 2004 من دار التل للنشر، البليدة.

ثانياً. من مؤلفاته بالفرنسية

1- جورج مارسيه (1914): دراسة حول مزهريتين قبائليتين من مدينة قسنطينة.

Marçais, Georges (1914): Notice sur deux vases kabyles trouvés à Constantine in: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957.

2- جورج مارسيه (1927): دراسة حول صندوق قبائلي

Marçais, Georges (1927): Notice sur un coffre kabyle, in: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957.

3- جورج مارسيه (1931): الفن الإسلامي في الجزائر

Marçais, Georges: L'Art musulman en Algérie. Imprimerie Algérienne, Alger, 1931.

4- جورج مارسيه (1934): الجزائر المسلمة: أطلس تاريخي وجغرافي واقتصادي.

Marçais, Georges: L'Algérie Musulmane, Atlas historique, géographique et économique,1934.

5- جورج مارسيه (1937): فنون التطريز التركية في مدينة الجزائر.

Marçais, Georges (1937): Les broderies turques d'Alger, in: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957.

6- جورج مارسيه (1946): محمد راسم ونهضة فن المنمنمات.

Marçais, Georges: Mohamed Racim et la renaissance de la miniature, in: *Documents Algériens*, Décembre 1946, p.265.

7. جورج مارسيه (1948): مدينة سوسة والعمارة الإسلامية في القرن التاسع.

Marçais, Georges: Sousse et l'architecture musulmane du IX^{e} siècle. *Annales de l'Institut des Études Orientales* (Algiers) 7. 1948. pp. 54-66.

8- جورج مارسيه (1949-1950): حول الجامع الكبير في تلمسان.

Marçais, Georges: Sur la grande mosquée de Tlemcen. *Annales de l'Institut des Études Orientales* (Algiers) 8. 1949-1950. pp. 266-277.

9- جورج مارسيه (1950): جامع سيدي بو مروان بعنّابة.

Marçais, Georges: La mosquée de Sidi Bou Merouân de Bône. Mélanges offerts à William Marçais par l'Institut d'Etudes Islamiques de l'Université de Paris, Paris 1950. pp. 225-236.

10- جورج مارسيه (1957): نظرات حول أربطة بلاد البربر: بحوث في تاريخ الغرب الإسلامي وآثاره.

Marçais, Georges: Notes sur les ribāṭs en Berbérie. Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957. pp. 23-36.

11- جورج مارسيه: (1935-1945) تأملات في مدارس الزوايا في بلاد البربر، حول ضريح التاشفينية بتلمسان.

Marçais, Georges: Remarques sur les médersas funéraires en Berbérie, à propos de la

Tâchfînîya de Tlemcen, in: Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Le Caire 1935-1945. pp. 259-278.

12- جورج مارسيه (1957): الجزائر في العصور الوسطى: الآثار والمشاهد التاريخية.

Marçais, Georges: Algérie médiévale. Monuments et paysages historiques. Editions Arts & Métiers Graphiques. Paris, 1957.

13- جورج مارسيه (1957): نظرات حول مواقع المداخل الجانبية في مساجد الشرق والغرب الإسلاميينْ.

Marçais, Georges: Remarques sur la position des entrées latérales dans les mosquées d'orient et d'occident, in: Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957. pp. 119-130.

14- جورج مارسيه (1957): سيدي عبد الرحمن، وليّ مدينة الجزائر وضريحه.

Marçais, Georges: Sidi Abd er-Rahman, patron d'Alger et son tombeau, in: Mélanges d'histoire et

d'archéologie de l'occident musulman. Tome I: Articles et conférences de Georges Marçais, Algiers 1957. pp. 195-203.

15- جورج مارسيه (1957): محمد راسم، كبير فناني المنمنمات في الجزائر.

Marçais, Georges: Mohamed Racim, un grand maître de l'art de l'enlumimure et de la miniature, in: *La République,* Mardi, Avril 1957, p.9.

16- جورج مارسيه (1958، 2005): المدن والأرياف الجزائرية.

Marçais, Georges: Villes et campagnes d'Algérie, Imprimerie Nationale, Paris, 1958 (Editions du Tell, Paris, 2005).

17- جورج مارسيه: لوحات جزائرية

Marçais, Georges: Peintures Algériennes, in: *Fonds Maghrebins*. Archives El-Hamma. Alger, no. 60643.

ثالثاً. من أعماله المشتركة

1- شارل ديهل وجورج مارسيه (1936): عالم المشرق من عام 395 إلى عام 1081 م.

Diehl, Charles & **Marcais**, Georges (1936): Le monde Oriental de 395 à 1081. Paris, Presses Universitaires de France, in: G. Glotz (dir.): Histoire du Moyen age, t.3.

2- أوجين ألبرتيني، وجورج مارسيه، وجورج إيفار (1937): شمال إفريقيا الفرنسي في التاريخ.

Albertini, E., **Marçais**, Georges, **Yver**, G.: L'Afrique du Nord française dans l'histoire, Editions Archat, Paris, 1937.

3- جورج مارسيه وإيميل جوديسار (1951): مدينة الجزائر البربرية.

Marçais, Georges & **Gaudissard,** Emile: Alger barbaresque, Alger, Editions Baconnier, 1951.

4- جورج مارسيه، وغوسل س.، ويوان ج. (1964): تاريخ الجزائر القديم

Marçais, Georges & **Gossel**, S. &Yuen, G.: Histoire de l'Algérie ancienne, Librairie Future, Paris, 1964.

المصادر والمراجع

- **بهنسي**، عفيف: جمالية الفن العربي. سلسلة عالم المعرفة 14، فبراير 1979
- **عنان**، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997.
- **هلايلي**، محمد حنيفي: المستعربون الفرنسيون في مدرسة تلمسان الرسمية ما بين 1850-1962: دراسة في المسارات والتوجهات الاستعمارية والاستشراقية؛ مجلة *الحوار المتوسطي*، مج. 12 (13)، ديسمبر 2017، ص. 41-64.
- **Bouayed**, Anissa, «Histoire de la peinture en Algérie: continuum et ruptures», *Confluences Méditerranée*, 2012/2 (N°81), pp. 163-179.

  DOI: 10.3917/come.081.0163.

  URL:https://www.cairn.info/revue-confluences-mediterranee-2012-2- page-163.htm
- **Cazeneuve**, Elisabeth & Giovangeli, Bernard: Les Artistes Algériens: Dictionnaire des peintres et des sculpteurs, 1830-1962, Imprimerie Abdellatif, Paris 2001.

- **Dussaud**, René: Georges Marçais. La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge [compte rendu]. In: *Syria*. Tome 26 fascicule 3-4, 1949. p. 377;

  https://www.persee.fr/doc/syria_00397946_1949_num_26_3_8413_t1_0377_0000_1

- **FERRIEU,** Xavier: Georges Marcais, in: *Bibliothèque municipale de Rennes***,**

  https://www.bibliorare.com/coin_du_bibliophile_bis.htm

- **Gaudefroy-Demombynes**, Maurice (reviewer): Tunis et Kairouan (Les Villes d'art célèbres) by Georges Marçais, in: *Revue Historique*, T. 186, Fasc. 1, Mémoires et Études (1939), Presses Universitaires de France, pp. 164-169. Stable URL: https://www.jstor.org/stable/40947115

- **Guignard**, Didier: Une polysémie vestimentaire dans l'Algérie rurale de l'entre-deux-guerres, in: **Corriou**, Morgan & **Oualdi** M'hamed (ed.): Une histoire sociale et culturelle du politique en Algérie et au Maghreb. Etudes offertes à Omar Carlier; Editions de la Sorbonne, pp. 127-142, 2018.

  https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01877058/document

- **Golvin,** Lucien: "Henri Terrasse (1895-1971)- Publications d'Henri Terrasse", in: *Revue de l'Occident et de la Méditerranée*, vol. 12, n°. 1, 1/11972, pp. 7-21.

- **Jaqueton,** Gilbert (compte-rendu): William Marçais et Georges Marçais. Les Monuments arabes de Tlemcen, in:

Bibliothèque de l'école des chartes. 1904, tome 65. pp. 611-615;
https://www.persee.fr/doc/bec_03736237_1904_num_65_1_461406_t1_0611_0000_2.

- **Jaqueton**, Gilbert (compte rendu),: Georges Marcais Manuel d'art musulman…, in: *Bibliothèque de l'École des chartes* , Année 1928, 89, pp. 123-125;

  www.persee.fr/doc/bec_0373 6237_1928_num_89_1_460508_t1_0123_0000_001

- **Lambert**, Elie (compte-rendu): Georges Marcais, Manuel d'art musulman: L'Architecture (Tunisie, Algerie, Maroc, Sicile) in: *Bulletin Hispanique*, 1929, 31-2, pp.151-152. www.persee.fr/doc/hispa_0007-4640_1929_num_31_2_2342_t1_0151_000_1

- **Laurens**, Henry , L'orientalisme français: un parcours historique, in: **Courbage,** Youssef et **Kropp,** Manfred: PENSER L'ORIENT, Publications de l'Institut français du Proche-Orient, Presses de l'Ifpo, 2004, pp.103-128.

- **Lebeau,** Bernard (Nov. 2001): Lettres inédites de Mme Amboise Marçais (mère de William et Georges Marçais) adressées à Georges au début de l'année 1899, avec une généalogie rédigée de la famille Marçais du milieu du 18^{e}, jusqu'au 20^{e} siècle (42 pages, avec 10 illustrations et 1 tableau généalogique. Disponible chez l'auteur: Bernard LEBEAU. 14, Allée du Danemark. 35200 - RENNES (France).

- **Messaoudi**, Alain (2008): "Marçais, Georges", in: François Pouillon (ed.): Dictionnaire des Orientalistes de langue française, ISSMM-Karthala, 2ème ed., Paris, 2008, pp. 640-641.
- **Messaoudi**, Alain (2014): "Deux savants orientalistes dans l'Algérie coloniale: William et Georges Marçais", in: Abderrahmane Bouchène (ed.): *Histoire de l'Algérie à la période coloniale. 1830-1962*. La Découverte, 2014, pp. 282-286. ISBN 9782707178374.

  https://www.cairn.info/histoire-de-l-algerie-a-la-periode-coloniale---
- **Messaoudi,** Alain: Associer l'Islam à la France par la ville d'art? La science des arabisants et la politique touristique à Tlemcen, Kairouan et dans les villes impériales du Maroc (v. 1890-v. 1920), in: Colette Zytnicki et Habib Kazdaghli (dir.), *Le Tourisme dans l'empire français. Politiques, pratiques et imaginaires (19e-20e siècles). Un outil de la domination coloniale?* Paris, Publications de la SFHOM, 2009, pp. 165-179.
- **Pächt**, Otto (1986): Book Illumination in the Middle Ages (translated from German), Harvey Miller Publishers, London.
- **Ch. P.** (1962): MARÇAIS, WILLIAM et GEORGES MARÇAIS, in: *Revue Archéologique,* T. 2 (juillet-décembre 1962), pp. 81-84, Presses Universitaires de France; https://www.jstor.org/stable/41754895

- **Pouillon**, François (éd.), Dictionnaire des orientalistes de langue française, avec Jean Ferreux et Lucette Valensi (2001-2006). Guy Barthèlemy, Sylvette Larzul, Alain Messaoudi (2006-2012), éditions IISMM-Karthala, 2008, avec l'appui de l'Institut d'Études de l'Islam et des Sociétés du Monde Musulman (IISMM).